ريتشارد هاردنج ديفيز

في الضباب

ON THE FOG

ترجمة: زهراء مجدي



BOOKLAND

الفصل الأول

«ذا جريل»، هو أصعب نادٍ يمكن الانضمام إليه في العالم، وإضافة اسم جديد إلى قائمة الأعضاء، الأكثر حظًا، شرفٌ يساوي في قدره تقليدَ الفرد وسام ربطة الساق البريطاني للفروسية (1)، أو نشر مجلة «فانتي فير» رسمًا كاريكاتوريًا له.

لم يشرْ أيٌّ من الرجال المنتمين إلى نادي «ذا جريل» إلى تلك الحقيقة أبدًا، وإذا سألتَ أحدهم عن النوادي التي يترددُ عليها، فسوف يخبركَ بأسمائها جميعًا، عدا ذلك بعينه؛ خشية الوقوع في فخّ التباهي إذا أخبركَ بانتمائهِ إلى «ذا جريل».

يرجعُ تاريخ نادي «ذا جريل» إلى تلك الأيام عندما شُيّدَ مسرح شكسبير على المقر الحالي لصحيفة «تايمز». كانت هناك شوّاية ذهبية قدَّمها تشارلز الثاني للنادي، مع مخطوطة باليد لكتّاب «توم وجيري في لندن» (2)، والذي ورثهُ عن بيرس إيغان نفسه، وما يزالُ الأعضاء ملتزمين بتقاليدهم القديمة، كتجفيف الحبر بالرمال حين يكتبون خطاباتهم في النادي.

يتمّتع أعضاء «ذا جريل» بحق الاقتراع السرّي لاختيار العضو الجديد، دون أدنى تحيُّز سياسي، حتى إنّهم رفضوا انضمام رؤساء

وزراء مهما كان انتماؤهم الحزبي. في مراسم إحدى تلك الجلسات، وقعَ اختيارهم على محامٍ شهير يُدعى كويلر، بناءً على جعجعتهِ ومحاججتهِ الخصوم، رغم كونهِ معدمًا فقيرًا.

تلقّى الرسام الفرنسي بول بريفال دعوة لزيارة لندن، ذاتَ مرة، بأمرٍ ملكي؛ لرسم بورتريه لأمير ويلز. حينئذٍ، مُنحَ عضوية النادي الفخرية، فيُسمح للأجانب فقط أن يكونوا أعضاءً فخريّين. قال بول وهو يوقّع أول بطاقة نبيذ له: «أفضّل رؤية اسمي عليها، على رؤيته على لوحة في اللوفر»، حينها علّقَ كويلر ساخرًا من مجاملتهِ المبالغة، بأنَّ الوحيدين الذين يمكنهم قراءة أسمائهم في اللوفر اليوم، ماتوا منذ خمسين عامًا.

ذاتَ ليلة، بعد مرور الضباب العظيم عام 1897، جلسَ خمسة أعضاء في النادي. انشغلَ أربعة منهم بتناول العشاء، بينما باتَ الأخير يقرأ أمام المدفأة.

هناك غرفة واحدة في النادي، ومنضدة طويلة وحيدة، في أحد أرجاء الغرفة البعيدة، وبينما ألسنة نار الشوّاية تلمعُ مُحمَرَّةً، تساقطت الدهون عن سطحها مطلقةً شرارات ملتهبة. أمَّا في الجانب الآخر، كان هناك شبّاك بلوح مرصع بالألماس، يطلُّ مباشرة على الشارع.

جلسَ الرجال الأربعة على المنضدة غرباءَ عن بعضهم البعض،

لكن بعدما التقطوا اللحم المشوي، وارتشفوا الويسكي الاسكتلندي والصودا، صاروا يتجاذبونَ أطراف النقاش فيما بينهم براحة مطلقة، وودّ لا يمكن توافره بين زائرين جدد لنادٍ لا يسمح بدخول زوار؛ حتى تحسب أعضاءه أصدقاء تجمعهم معرفة طويلة، فكانوا على النقيض التام لما يبدو عليه الرجال الإنجليز عندما يلتقون للمرة الأولى، ودون أيّة درجة من التمهيد للتعارف فيما بينهم.

تلك هي آداب وتقاليد «ذا جريل»، أيّاً كان مَن يدخل فإنّه يتحتّم عليه فتح حوار مع أيّ شخص يجده هناك؛ ومن أجل التأكد من اتّباع الأعضاء تلك القاعدة، وُضعت منضدة واحدة طويلة، وسواء كان هناك عشرون رجلًا يلتفّون حولها أم رجلانِ فقط، كانَ الخدم يتفانون في تطبيق القاعدة، بأن يرتّبوا لهم مقاعد تُجاور بعضها.

من أجل ذلك السبب، كان الرجال الأربعة يتناولون العشاء وهم جالسون معًا، على ضوء شموع جُمعت إلى جانبهم، وتركوا باقي المنضدة الطويلة المتشحة بغطاء أبيض لتسقط في الكآبة المحيطة بالمكان.

قال رجل أنيق ثبّتَ دبوسًا لؤلؤيًا أسودًا على ياقة بدلتهِ: «سأحدّثكم في أمر يشغلني، فقد ولّتْ أيام كنّا نخوض فيها المغامرات، ونتجرأ على ارتكاب أفعال حمقاء، لا نلوم عليها سوى أنفسنا. أنا لا أعتبرُ الذهاب في رحلة إلى القطبين مغامرة. ومستكشف إفريقيا، ذاك الشاب

المدعو تشيتني، الذي ظهرَ أمس، بعد أن كان من المفترض أنّه مات في أوغندا، لم يفعل شيئًا بطوليًا. فقط قامَ برسم خرائط، واستكشاف مصادر الأنهار. كان في خطر دائم، لكنَّ وجود الخطر لا يشكل مغامرة بالضرورة. وإذا كان الأمر كذلك، فالكيميائي الذي يختبرُ موادًا شديدة الانفجار، أو مَن يفحص السموم المميتة، يمرُّ عبر الأهوال كل يوم، لكن لا؛ فلم يعش المغامرة إلا أولئكَ الذين سعوا إليها عمدًا، من ماتت أرواحهم ولفَّ الجمود مشاعرهم، مثلنا، فلقد كبرنا عقلانيين جدًا، وقبل كل شيء، حكماء للغاية.

على سبيل المثال، في هذه الغرفة، وقعَ شجار بين أعضاء النادي، وكلٌّ أخذَ حقّه بحد السيف، عندما تنازعوا حول المعنى الدقيق الذي قصدهُ البابا في إحدى خطبه. مسألة لا تستحقّ، بدأت بسيطة، بأن قذفَ أحدهم كأس براندي، فسقط على كُمّ رجل نبيل، ثم تحولتْ إلى عشرة رجال يتقاتلون عبر هذه المنضدة، يُشهر كل واحد منهم سيفهُ بيد، وبالأخرى يمسك شمعة، حتى أصيبَ الرجال العشرة جميعهم.

لم تخصّ حادثة البراندي سوى اثنين فقط منهم، لكنّ الثمانية الآخرين تورَّطوا فيها؛ لأنَّ الشجاعة تملأ أرواحهم، وكانوا بالفعل، أول من همّوا بالقتال ذلك اليوم. في ليلتنا هذه، هل لو سكبَ أحدكم

البراندي على أكمامي، أو حتى أهانني أمامكم بشكل واضح، ستفعلونَ مثلهم؟ لم يلتفتْ هؤلاء الرجال إلى أنّهم كادوا يقتلون بعضهم، أمّا نحنُ فسنجد من يفصل بيننا، وغدًا تحكونَ عن حادثتنا الغبية في باو ستريت. نحنُ هنا اليوم - ممثلون جميعًا فِيّ وفي شخص السير أندرو- شهودٌ لنريكم كم غيَّرتنا الحياة».

استدارَ الرجال في جلستهم قليلًا حول المنضدة، ونظروا تجاه الرجل أمام المدفأة. رجل مسنّ، جسدهُ مترهل متدلٍ، شخص ذو وجه عطوف نوعًا ما، تغور فيه التجاعيد، وسرعان ما ارتسمتْ عليه ابتسامة هادئة، بدت شديدة الطفولية، وَدلّت على نفس طيبة. كان كأحد تلك الوجوه التي تمنحُ انطباعًا بالألفة الواضحة، يقرأ كتابًا يسندهُ على طول ذراعه، مضبوطًا في اتجاه بصره، يحملقُ فيه بحاجبين عقدهما التركيز.

تابعَ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء وجهة نظره: «هكذا كنَّا في القرن الثامن عشر. أتعرفون؟ عندما يغادر السير أندرو النادي هذه الليلة، أودُّ لو يمكنني تكميمهُ وتقييده في مِحفة (3). لن يتدخل حارسهُ في الأمر، وإذا رآني المارّة سيسرعون الخطا ويهربون، ثم أنقلهُ بمساعدة المأجورين والبلطجيَّة إلى مكان ناءٍ معزول، يمكننا فيه التحفّظ عليه حتى الصباح.

قد لا يتأتّى شيء من هذا، باستثناء السمعة الجيدة التي ستشيعُ عنّي، كرجل نبيل يتمتع بروح المغامرة، وربما مقال يُنشر عني في مجلة (تاتلر)، وسط ألمع نجوم المجتمع تحت عنوان جذّاب، ولنقل مثلًا: البارون (4) وإعلان الموازنة العامة».

استفسرَ أصغر الأعضاء سنًا: «وما هي غايتكَ من كل هذا؟ ولماذا السير أندرو، تحديدًا، من بين جميع الأشخاص؟ لماذا اخترتهُ هو من أجل تلك المغامرة؟»».

هزَّ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء كتفيه، وأجاب: «ستمنعهُ فِعلتي مَن الذهاب إلى مجلس العموم ليلًا، ومناقشة مشروع قانون لزيادة ميزانية أسطول البحرية الملكية»، أضافَ، وقد عرفَ العبوس طريقه إلى وجههِ: «إنّه تدبير تتّخذه الحكومة، ويدافع عنه السير أندرو بضراوة. وما أعظم نفوذه وسلطته لينجح في ذلك! وما أطول صفوف أتباعه!»».

ضحكَ هازئًا آسفًا، ثم علتْ نبرته، وأعلنَ: «إذا ذهبَ وناقشه، سيدخل ذلك المشروع حيّز التنفيذ. لو كانت لديَّ شجاعة أجدادنا، لأتيتُ بمُركّب الكلوروفورم من أقرب كيميائي، وخدَّرته على هذا الكرسي. سأحملهُ فاقدًا الوعي، ثم أكوّمهُ في عربة يجرُّها الحصان، واحتجزهُ كأحد سجنائي حتى طلوع النهار. إذا فعلتُ ذلك؛ فسوف

أوفّر على دافعي الضرائب البريطانيين تكلفة خمس سفن حربية أخرى، ما يساوي ملايين الجنيهات».

استدارَ السادة الأعضاء مرة أخرى في جلستهم، ونظروا مجددًا تجاه البارون العجوز، تفحَّصوه بنظرة ملؤُها الفضول، ثم اعتدلوا في جلستهم ثانية لاستكمال الحديث.

كان هناك ذلك العضو الفخري لنادي «ذا جريل»، والذي كشفته لكنتهُ الأميركية، فقال بعد ضحكة وقورة:«حقًا، لا يمكن لأحد أن يتوقع اهتمامه بشؤون الدولة بهذا القدر من العمق، مهما تطلّعنا فيه». أومأ الآخرون في صمت، وأضافَ العضو الأصغر بينهم: «حتى إنّهُ لم يرفع عينيه عن هذا الكتاب منذ دخولنا النادي».

تمتمَ الرجل ذو الدبوس اللؤلؤي في كآبة: «بالتأكيد هو لم يعتزم الانقطاع عن الحديث هذه الليلة.. أوه.. نعم.. سيتكلم بالضرورة.. فستظلّ الجلسة منعقدة في مجلس العموم حتى وقت متأخر من الليل، ولكن عندما يحينُ موعدالقراءة الثالثة لمشروع قانون زيادة الميزانية البحرية سيكون جالسًا في مكانه، مستعدًا للتصديق عليه وتمريره».

همَّ العضو الرابع بالمشاركة، وهو رجل نبيل ومنمّق، يملك جسدًا رياضيًا بعض الشيء، يرتدي معطفًا قصيرًا، وربطة عنق سوداء. تنهَّد العضو، والحقد ملءُ عينيه، وقال: «أيُّ واهم منّا يظنّ أنّه قادر

على ربط جأشه مثل هذا الرجل، خصوصًا إذا علِمَ أنّه سيقف أمام مجلس العموم لإلقاء خطابهِ في غضون ساعات؟! لو كنتُ مكانهُ لأمسيتُ جبانًا، مذعورًا في قرارة نفسي، ورغم ذلك فهو حريص على قراءة هذا الكتاب، كما لو أنّه لن يفعل شيئًا غيره حتى موعد نومه».

صدّقَ أصغر الأعضاء على الحديث هامسًا: «حقًا، انظروا، كم يبدو حريصًا! إنّه لا يرفع عينيه عن الصفحات، حتى وهو يقلّبها الآن. ربما يكون ذلك تقرير الأميرالية، أو نتيجة بعض الأعمال الإحصائية الهامّة، والتي قد يتضمّنها خطابه».

ضحكَ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء، رغم كآبة باتتْ واضحة عليه، وقال: «إنَّ التقارير الخطيرة التي ينغمس فيها رجل الدولة البارز بهذا الشكل تسمَّى: (السرقة الكبرى) (5)، وهي رواية بوليسية، تعرضُها المكتبات كافة للبيع».

رفعَ الرجل الأميركي حاجبيْه غير مصدق!، وكرَّر في تعجب: « (السرقة الكبرى)؟ يا لها من ذائقة أدبية غريبة!».

عادَ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء يكمل حديثه: «لا، ليست مجرد ذائقة، إنّما هي تسليتهُ الوحيدة، ولطالما عُرِفَ بها. سيصعب عليكم

تخمين هذا الطبع الخاص فيه كغرباء عنه. فكما وجدَ السير غلادستون (6) سلواهُ في القراءة للشعراء اليونانيين، يجدُ السير أندرو سلواهُ مع روايات غابوريو.

منذ كنتُ عضواً في البرلمان، لم أرهُ قط في المكتبة، إلا وفي يده إحدى الروايات البوليسية، حتى إنّهُ يتجول برواياته في أكثر أرجاء مجلس العموم قدسية، ويُخفيها داخل قبعته وهو جالس في مقاعد ممثلي الحكومة الأمامية. ما من مرة شرعَ في قراءة قصة عن القتل أو السطو أو الموت المفاجئ، واستطاع أيُّ شيء أن يحيدَ بصره عن الكتاب، ولا حتى دقات جرس التصويت، ولا الجوع، ولا دعوات ممثلي الكتل النيابية، إلى الدرجة التي اضطرتّه للتخلي عن عادتهِ في الذهاب إلى بيتهِ في الريف؛ لأنّه كان كلّما سافرَ إليه مستقلًا القطار، انغمسَ تمامًا في أحداث قصصهِ البوليسية، ونسيَ النزول في محطته».
عدّلَ النائب البرلماني لؤلؤتهُ السوداء في حركة عصبية، لفَّ طرف شاربه، ثم تمتمَ متذمرًا: «أقسمُ بأنني قادر على التحفّظ عليه هنا حتى الصباح، ولا حاجة للكلوروفورم لمنعه من الذهاب لجلسة مجلس العموم، إذا تيقّنتُ من أنه مايزالُ يقرأ في الصفحات الأولى من (السرقة الكبرى)، ولم يصل إلى الصفحات الأخيرة في كتاب مثل هذا».

ثبتتْ أنظار جميع الحضور على السير أندرو، وراحوا يراقبون حركة سبَّابته، مأخوذِّين بالفضول، وهو يفصلُ بها آخر صفحتين من الكتاب، في تلك اللحظة.

ضربَ النائب البرلماني المنضدة بباطن كفّه، ضربةً خفيفة، وهمسَ: «سأدفع مائة جنيه، إذا استطعتُ أن أضع بين يديه، في هذه اللحظة، قصة جديدة لشرلوك هولمز... سأدفع ألف جنيه»، ثم عادَ إلى نبرتهِ العالية: «خمسة آلاف جنيه».

نظرَ الأميركي إلى المتحدث نظرة متفحصة، وكأنَّ الكلماتَ قد أوحتْ له ببعض الأفكار، وحدهُ دون الجميع، ثم تسللتْ إحداها إلى عقله، وسيطرت عليه سيطرة كاملة، حتى انتبهَ، وابتسمَ من شدة الارتباك.

توقفَ السير أندرو عن القراءة، ورغم ذلك ظلَّ ذهنهُ واقعًا تحت سطوة الكتاب؛ فطفقَ ينظر إلى العدم في اتجاه المدفأة. خلال بُرهة، لم يحرِّك أحد الجلوس ساكنًا، حتى رفعَ البارون عينيه، وفي حركة مفاجئة من أجل استجماع أفكاره، نظرَ في ساعته نظرةً ملهوفة، ومسحَ على وجهه في يقظة وانتباه، ثم قامَ على قدميه.

كسرَ صوت الرجل الأميركي الصمت في الحال، بنبرة عالية عصبية، وصاح: «حتى لو أتيتَ بشرلوك هولمز نفسه، لن يتمكنَ من

حل اللغز الذي يؤرق شرطة لندن في ليلتنا هذه».

بتلكَ الكلمات غير المتوقعة، والتي سيقتْ لهم في نبرة تحمل شيئًا من التحدي، بدا السادة الأعضاء حول المنضدة، كما لو أنَّ الأميركي قد أشهرَ مسدسهُ فجأة، وأطلقَ رصاصةً في الهواء.

توقفت حركة السير أندرو الفجائية، ثم أخذَ يتفحص الأميركي في شيء من الدهشة. استفاقَ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء أولًا، قال متلهفًا، وقد مالَ بكل جذعه على المنضدة: «نعم، نعم، اللغز الذي يحيِّر شرطة لندن. أنا لم أسمع أيَّ شيء عن ذلك. أخبرْنا في الحال. أتوسَّل إليك».

احمرَّ وجه الأميركي من شدة الإحراج، أمسكَ مفرش المنضدة بيديه في حركة مضطربة، ثم تمتمَ قائلًا: «لم يسمع أحد قط شيئًا عنهُ، سوى الشرطة، وقد عرفوا به من خلالي، أنا فقط. إنَّها جريمة متقنة، وأنا، لسوء الحظ، الشخص الوحيد المعني بالشهادة فيها، ولأنَّني الشاهد الوحيد، وعلى الرغم من حصانتي كدبلوماسي؛ محتجز الآن في لندن، من قِبل سلطات سكوتلاند يارد، واسمي...»، قال وهو يطأطئ رأسهُ بأدب: «سيرز، الملازم ريبلي سيرز، من بحرية الولايات المتحدة الأميركية، وفي الوقت الحاضر، أنا الملحق البحري في روسيا، ولو لم تتحفَّظ الشرطة عليَّ اليوم؛ لسافرتُ في صباح هذا

اليوم إلى بطرسبرغ»».

هلَّلَ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء من كمٍّ الإثارة والإعجاب، أضرَّ على التكلم، إلى حدٍّ تلعثمَ فيه الأميركي وسكتَ، فصاح الرجل: «هل تسمع يا سير أندرو؟! أميركي دبلوماسي، تمنعهُ الشرطة من السفر؛ لأنَّه الشاهد الوحيد على أعنف جريمة، أغرب جريمة وقعت في لندن منذ سنوات». أضافَ وهو ينحني بشغف نحو الضابط البحري: «أنا أصدِّق ما تقولهُ يا سيدي عمَّا حدثَ في لندن».

هزَّ الأميركي رأسهُ مصدقًا على وصفه، نظرَ إلى العضوين الآخرينْ، وكانا ينظران إليه بارتياب، وعلى وجه كلٍّ منهما حيرة شديدة.
تقدَّمَ السير أندرو نحو حيِّز تُسقط عليه الشموع ضوءها، سحبَ كرسيًا إلى جانبه، وقال: «في الواقع، على الجريمة أن تكون استثنائية؛ لتبرير تدخُّل الشرطة والتعامل مع ممثل دولة صديقة بذلك الشكل. لو لم أكن مضطرًا للمغادرة في الحال، لكنتُ تجرأتُ وطالبتكَ بإخبارنا مزيدًا من التفاصيل».

حرَّكَ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء الكرسي بسرعة نحو السير أندرو، ثم أشارَ له بالجلوس، وقال متلهفًا: «لا يمكنكَ تركنا الآن؛ السيد سيرز على وشك أن يخبرنا عن تلك الجريمة الغريبة». أومأ برأسه إيماءة متعجِّلة في اتجاه ضابط البحرية الأميركي، بعد نظرة خاطفة لأول

مرة نحو الخدم في أقصى الغرفة، وانحنى إلى الأمام عبر الطاولة، قرّبَ الآخرون كراسيهم من المنضدة، وانحنوا نحوهُ. ألقى البارون نظرة سريعة على ساعتِه، استسلمَ، وأغلقَ غطاء ساعته متعجباً من هذا الإصرار، وتمتمَ: «يمكنهم الانتظار». جلسَ بسرعة على كرسيه، أشارَ برأسه إلى الملازم سيرز، وقالَ بصبر يكاد ينفد: «سيدي، سيكونُ لطفًا بالغًا منكَ أن تبدأ».

قال الأميركي: «بالتأكيد. أنتم على دراية بأنّني أعي معنى التحدث إلى رجال نبلاء، فالأسرار في هذا النادي جزء من حرمتِه، وحتى تُطلعَ الشرطة وسائل الإعلام على الحقيقة، عليَّ أن اعتبركم منذ الليلة حلفائي، وأنّكم لم تسمعوا منّي شيئًا، ولا تعرفون أيَّ شخص له علاقة بهذا اللغز، حتى إنني يجب أن أبقى مجهولًا».

هزَّ الرجال الجالسون من حوله رؤوسهم بالموافقة في حركة تلقائية، وصدّقَ البارون على حديثِه متشوقًا: «بالتأكيد.. بالتأكيد». تَبِعهم الرجل ذو اللؤلؤة السوداء، وقال: «حتى إنّنا سنطلق عليها: (قصة الملحق البحري)».

قال الأميركي: «لقد وصلتُ إلى لندن قبل يومين، وأقمتُ في غرفة بفندق باث. أنا أعرفُ قليلاً من الناس في لندن، فحتى أعضاء سفارتنا كانوا غرباءَ بالنسبة لي، لكن في هونج كونج جمعتني صداقة

قوية بضابط يعمل لدى أسطولكم البحري، والذي تقاعدَ بعد ذلك الحين، والآن، يعيش في بيت صغير في حدائق روتلاند أمام نايتسبريدج.

أرسلتُ لصديقي برقية لأخبرهُ بوجودي في لندن، وفي صباح أمس، استقبلتُ منه أرقَ دعوة لتناول العشاء في الليلة نفسها، في بيته. هو أعزب، لذا تناولنا العشاء وحدنا، وتحدثنا طويلًا عن أيامنا الخوالي في السرب البحري الآسيوي، والتغيرات التي حدثتْ وأثَّرتْ علينا منذ آخر لقاء لنا هناك. لأنني في صباح اليوم التالي، كنتُ مسافرًا إلى عملي في بطرسبرغ، وكان لديَّ العديد من الرسائل لكتابتها؛ أخبرتهُ في حوالي الساعة العاشرة، أنَّه يحتم عليَّ العودة إلى الفندق، فأرسلَ خادمهُ لاستدعاء عربة أجرة.

طوال الدقائق الخمسَ عشرةَ التالية، وبينما كنَّا نجلس ونتحدث، سمعنا صوت صافرة الكابينة يدقُّ بعنف عند عتبة الباب، لكن -على ما يبدو- دون أيَّة نتيجة. قال صديقي وهو يقوم بكامل أناقتهِ متجهًا إلى النافذة: (لا يمكن أن يُضرب سائقو الأجرة عن العمل). أسدلَ الستائر ثانية، وطلب منّي الاقتراب في الحال، وسألني: (لم تسبق لكَ رؤية ضباب لندن، أليس كذلك؟ تعالَ هنا، هذا واحد من أفضل... أو بالأحرى، واحد من أسوئهم).

لحقتُ به عند النافذة، لكن عجزتُ عن رؤية أي شيء، ولو لم أعلم أنَّ البيت يطلّ مباشرة على الشارع، لاعتقدتُ أنّني أمام حائط سدَّ. فتحتُ النافذة، ومددتُ رأسي، لكن ما زلتُ عاجزًا عن رؤية أيِّ شيء، حتى أنوار مصابيح الشارع، والنوافذ العلوية للثكنات، غرقتْ وسط غشاوة صفراء، وتغلغلَ ضوء مصباح الغرفة إلى حيث كنتُ واقفًا بين الضباب، فأضاءَ فقط بضعة بوصات أمام عيني.

ما زالَ الخادم يطلق صوت الصفارات في الأسفل، لكنّني لم أعد أطيقُ الانتظار أكثر من ذلك، لذا أخبرتُ صديقي أنّني سأحاول تلمُّس الطريق إلى فندقي سيرًا على الأقدام. اعترضَ، ولكنَّ الرسائل التي عليَّ كتابتها موجهة إلى وزارة البحرية، وبخلاف ذلك، سمعتُ دومًا أنَّ الضباب في لندن هو أروع تجربة ممكنة، وبتُّ شغوفًا بالتحقق من ذلك بنفسي.

أوصلني صديقي إلى باب بيته، وحدَّد لي مسارًا لأتّبعه. كان عليَّ أولًا أن أعبر الشارع في اتجاه مستقيم، نحو سور ثكنات نايتسبريدج، ثم تلمُّس طريقي على امتداد السور، حتى أصلَ إلى صف من البيوت يقطع عليَّ رصيف المشاة. ستُحيلني البيوت إلى شارع تتقاطع معه، وعلى الجانب الآخر من ذلك الشارع هناك صفّ من المحلات، والتي سأتبعها حتى أصل إلى السور الحديدي لهايد بارك. سأسيرُ بموازاة

السور حتى أصل إلى بوابات هايد بارك كورنر، وهناك، سأقطع ميدان بيكاديللي، وأتَّجه نحو أسوار جرين بارك. في نهاية تلك الأسوار، وأنا متَّجه نحو الشرق، سأجدُ بيت والسينغهام، وفندقي.

لم يكن وصفه صعبًا بالنسبة لبحار مثلي؛ لذلك، تمنيت لصديقي ليلة سعيدة، وسرتُ باستقامة، إلى أن لمستْ قدماي طرف رصيف. تابعتُ السير حتى وصلت إلى حافة رصيف المشاة، خطوات أخرى قليلة حتى اصطدمَ كتفي بسور الثكنات. استدرتُ في اتجاه الطريق الذي أتيتُ منه قبل ساعات، ورأيتُ ساحة من الأضواء الخافتة تتقاطع في ضباب أصفر، ناديتُ صديقي: (كل شيء على ما يُرام)، سمعتُ صوته يُجيبني: (أتمنّى لك التوفيق)، تبعهُ صوت ضربة قوية، اختفى النور القادم من بابهِ المفتوح، وبقيتُ وحدي في ظلام أصفر يلفّني.

لقد خدمتُ في البحرية لنحو عشر سنوات، لم أرَ قط ضبابًا مثل الذي رأيته في الليلة الماضية، ولا حتى بين الجبال الجليدية في بحر بيرنغ. هناك على الأقل يمكنكَ رؤية المصباح معلقًا على السفينة في صندوق البوصلة. لم أستطع حتى تمييز يديَّ في تلك الليلة. في البحر، يعدُّ الضباب ظاهرة طبيعية، إنَّه مألوف تمامًا مثل قوس قزح يتبع عاصفة. انتشار الضباب فوق سطح المياه أمرٌ كثيرًا ما نقابله، مثل

وجوب تصاعد الأبخرة من الغلّاية، لكنَّ الضباب الذي ينبع من بين الشوارع المعبدة، يلفُّ بين واجهات البيوت المصمتة، يجبرُ سيارات الأجرة على التحرك بنصف سرعتها، يغطي رجال الشرطة، ويحجب أشعة المصابيح الكهربائية أمام المسارح، فهذا بالنسبة لي أمر غير مفهوم. إنّه ظاهرة خيالية، كإعصار برودواي.

بينما كنتُ أتتبَّع طريقي بطول ذلك السور، صادفتُ رجالًا آخرين قادمين من الجهة المقابلة، وفي كل مرة كنتُ ألقي التحية على البعض، أبتعدُ عن السور، أفسحُ المجال أمامهم؛ ليمرُّوا، لكن في المرة الثالثة التي فعلتُ فيها ذلك، ثم مددتُ يدي إلى جانبي، اختفى السور. كلما تحركتُ لأصلَ إليه بدا وكأنّني أغوص في الفراغ. وقتئذٍ تسلّلَ إلى داخلي يقين غير مريح بأنّني سأسقط في هاوية بين لحظة وأخرى.

لم أسمع أيَّة حركة مرور في الشارع منذ خروجي من البيت. الآن، مع أنَّني سمعتُ بعضًا منها قبل دقائق، لم أستطع سوى تمييز وقع أقدام مارَّة بين حين وحين. ناديتُ أكثر من مرة بصوت عالٍ، وفي إحداها أجابني أحد السادة مازحًا ليسألني - في اعتقادي- أينَ هو، ثم ابتلعهُ الضباب هو الآخر في صمت.

لاحظتُ غيمة مضيئة تحوم فوقي مباشرة، اعتقدتُ أنَّها ناتجة

عن إضاءة مصباح في الشارع، فاتجهتُ إليها، وبينما كنتُ أحاول استعادة اتجاهاتي، تمسكتُ بعمود حديدي. باستثناء وميض تلك السحابة، لم أتمكّن من تمييز أيّ جزء منّي، سوى طرف إصبعي، وبالنسبة للبقية، فقد علقَ الضباب بيني وبين العالم، كلحاف مُبَتَلّ ثقيل.

تمكنتُ من سماع الأصوات، لكنّني لم أستطِع الجزم بمصدرها. كشط أقدام تتحرك بحذر، أو صرخة مكتومة يُصدرها البعض إذا تعثَّر، كانت تلك الأصوات الوحيدة التي وصلتني. قررتُ أنّه سيكون من الأفضل أن أبقى حيث كُنتُ حتى يمرَّ شخص بي ويسحبني معه، وأعتقدُ أنَّ عشر دقائق مرّت وأنا هناك منتظر بجانب المصباح، أسترقُ السمع، وأحيّي أصحاب الخطوات البعيدة.

استشعرتُ رقصَ بعض الأشخاص على موسيقى لفرقة مجريّة في بيت قريب منّي، حتى ظننتُ أنّي قادر على سماع اهتزازات النوافذ على إيقاع أقدامهم، لكن لم أستطع تحديد من أيِّ الاتجاهات تأتي تلك الأصوات. أحيانًا، كانت الموسيقى ترتفع حتى أشعر بموجاتها بالقرب من يديّ، وأحيانًا أخرى كانت تطفو عاليًا في الهواء فوق رأسي، مع أنّي كنتُ محاطًا بآلاف من البيوت وأصحابها، بتُّ ضالًا تمامًا، كما لو كنتُ مُلقىً في الصحراء الكبرى ليلًا.

بدا أنْ لا فائدة من انتظاري رفقةً لوقت أطول؛ لذا انطلقتُ ثانية، فاصطدمتُ فجأة بسياج حديدي منخفض. في البداية اعتقدتُ أنَّه سور لمنطقة ما، لكن بعد ذلك وجدتهُ طويلًا، ممتدًا، تقطعهُ بوابات منفصلة على مسافات منتظمة. وقفتُ حائرًا ممسكًا بيدي في واحدة من تلك البوابات، حينما تحررتْ بعض الأضواء فجأة لتغطّي ساحة وسط الظلام، ورأيتُ ـ كما لو ترونَ ـ لوحة مثبّتة مع بطاقة معلومات ببليوجرافية وسط مسرح مُعتم، لشاب يرتدي ملابس السهرة، وفي الخلفية تظهر أضواء لحجرة جلوس.

خمَّنتُ من الارتفاع والمسافةَ من رصيف المشاة أنَّ ذلك الضوء بالتأكيد قادم من باب أحد البيوت على مسافة قريبة منّي، وعزمتُ على الاقتراب منه، وسؤال صاحبه ليدلّني، لكن بينما كنتُ أتحسس قفل البوابة، أحنيتُ رأسي في حركة عفوية، وعندما رفعتهُ ثانية كان الباب قد أُغلقَ جزئيًا، تاركًا شعاعًا.

سواء كان الرجل قد دخلَ البيت أم غادره، أنا لا أعلم، فقد سارعتُ بفتح البوابة. خطوتُ إلى الأمام، ووجدتُ نفسي أسير على ممشى أسفلتي، وسمعتُ في اللحظة نفسها صوت خطوات سريعة على الطريق، وشخص يهرع نحوي. ناديتُ عليه، لكنّه لم يردّ، وسمعتُ صوت البوابة، وخُطاً متعجلة تبتعد على الرصيف.

كانت لتصدمني فظاظة ذلك الشاب، ومجازفتهُ المتهورة بالخروج بتلك السرعة مباشرة نحو الضباب، في ظروف غير تلك. كانت لتصدمني كشخص غريب عن المدينة، لكن صارَ كل شيء مشوَّهًا بسبب الضباب، حتى إنّني في تلك اللحظة لم آخذه بعين الاعتبار.

بقيَ الباب على حاله منذ تركهِ مفتوحًا، سرتُ في طريقي نحوه، وبعد كثير من التخبُّطات وجدتُ مقبض جرس الباب؛ فسحبتهُ بقوة، سمعتُ رنين جرس يُجيبني من عمق ومسافة بعيدين، لم تتبعهُ أيَّة حركة من داخل البيت، مع أنّني سحبتُ الجرس مرة ثانية، ومراتٍ أخرى، لم أسمع شيئًا يسعى لإنقاذي من تدفّقات الضباب.

كنتُ حريصًا على المضي في طريقي، لكن لو لم أكن أعرفُ أيَّ طريق أسلكُ، ففرصتي في أن أسرع ضئيلة للغاية؛ لذا قررتُ أنَّه حتى أعرف اتجاهاتي لن أجرؤ على العودة إلى الضباب؛ فدفعتُ الباب المردود، وخطوتُ إلى داخل البيت.

وجدتُ نفسي في صالة طويلة وضيقة، أبواب مفتوحة على كل جانب منها، وفي نهاية الصالة سلّم له درابزين ينتهي بمنحنى واسع. غُطّي الدرابزين بسجاد فارسي قديم، علُق حتى على جدران الصالة. كان الباب على يساري مغلقًا، ولكن الباب الأقرب لي على اليمين كان مفتوحًا، وبينما أتقدَّم نحوه رأيتُ غرفةً تشبه نوعًا ما غرفة

معيشة أو انتظار، ولم أجد بداخلها أحداً. كان الباب الذي يليه مفتوحًا هو الآخر، سرتُ نحوه، مدفوعًا بيقين أنّني سأجد شخصًا هناك بالتأكيد. كنتُ بملابس السهرة، وشعرتُ بأن لا أحد سيشكُّ في أنّي لص؛ لذلك لم يتملّكني خوف من أن أضطرَّ إلى مواجهة أحد سكان المنزل، والذي قد يطلق الرصاص عليَّ بمجرد رؤيتي.

كشفَ البابُ الثاني في الصالة عن غرفة الطعام، ووجدتُها فارغة أيضًا، بدا أنَّ شخصًا قد تناولَ طعامه للتو على المنضدة، لكنَّ غطاءها المتّسخ لم يرفعه أحد بعد، ولم يُطفأ شمعدان أظهرَ لي كؤوسَ نبيذ نصف فارغة، ورمادَ السجائر، أمَّا الجزء الأكبر من الغرفة فقد سقط في ظلام دامس، وأدركتُ حقيقة أنّني أتجوَّل في بيت غريب في تلك اللحظة، وأنّني، على ما يبدو، وحدي هناك.

بدأ سكون ذلك المكان يثيرُ أعصابي، وأصابتني نوبة فزع مفاجئة، غير قابلة للتفسير. فكرتُ في العودة إلى الشارع، حيث لا حواجز، لكن بمجرد أن التفتُّ رأيتُ رجلًا يجلس على مقعد، حجبتهُ عنّي انحناءة الدرابزين، جفناه منسدلان، ويغط في نوم عميق. قبل لحظة كنتُ أشعر بالحيرة لأنّني لم أر أحدًا، لكن زادت حيرتي بمجرد رؤية ذلك الرجل.

كان رجلًا ضخمًا جدًا، وطويلًا، مع شعر أصفر طويل منسدل

على كتفيه، يرتدي قميصًا من الحرير الأحمر، انعقدَ عند خصره وتدلّى خارج بنطلون أسود مخملي، انحشرَ بدوره في حذاء أسود برقبة.
أعرفُ أنَّ هذا الزيّ يخصّ الخدم الروسيين، لكنَّ ارتداء خادم روسي زيَّه المحلي في بيت خاص في نايتسبريدج أمرٌ غير مفهوم.

تقدمتُ ولمستُ كتف الرجل، استيقظ بعد محاولات عدة، وبمجرد أن رآني نهضَ قائمًا على قدميه في حركة واحدة، انحنى بسرعة، وقام بإيماءات متعجلة. لقد سمعتُ ما يكفي من اللغة الروسية في بطرسبرغ لأفهمَ أنَّ الرجل كانَ يعتذر عن نومه، وأنا - بقدر استطاعتي- شرحتُ له أنّني أرغب في رؤية سيّده. هزَّ رأسه موافقًا بعفوية وقال: (هل تسمح سعادتكم بمرافقتي؟ الأميرة من هنا). علقتْ كلمته (الأميرة) بأذني، شعرتُ بحرج شديد، فقد تخيَّلت أنَّه من الأسهل شرح أسباب تطفلي على البيت إلى رجل، لكن سترى المرأة الأمر بطريقة مختلفة تمامًا. على أيَّة حال تبعتهُ إلى أسفل، نحو الصالة، مرتبكًا بعض الشيء.

بينما نتقدّم، لاحظَ الخادم أنَّ باب البيت مفتوح، تعجَّب من المفاجأة، وأسرعَ نحوه، وأغلقهُ، ثم نقرَ نقرتين على باب غرفة، عرفتُ بعد ذلك أنّها غرفة الضيوف، لم يتلقَّ أيَّة إجابة، ثم نقرَ مرة أخرى، حتى تراجعَ للحظة خَجِلاً خانعًا. فتح الباب، تقدَّم خطوات،

ثم تراجعَ في الحال، حدّقَ فيَّ ببلاهة، هزَّ رأسه، وقال: (ليست في الداخل)، وقفَ يُحدّق في الفراغ أمام الباب المفتوح للحظة، ثم أسرع نحو غرفة الطعام، أكدتْ له إضاءة الشمعة المنزوية، التي لم تزل تحترق، بأن لا أحد في تلك الغرفة. عاد إلى أمام غرفة الضيوف، انحنى، وقال: (إنّها في الأعلى، سأبلغ الأميرة بطلب صاحب السعادة)، التفتَ قبل أن أحاول منعه، صعدَ الدرج، وتركني وحيدًا عند باب غرفة الضيوف المفتوح.

شعرتُ بأنَّ المغامرةَ قد تطورت بما فيه الكفاية، ولو أعرفُ مزيدًا من الروسية، لشرحت له أنّني فقدتُ طريقي في الضباب، وأريدُ فقط العودة إلى الشارع مرة أخرى، وتركت ذلك البيت فوراً. بالطبع، عندما قرعتُ جرس الباب لأول مرة، لم يكن لديَّ أيّ توقّع آخر سوى أن يجيبني خادم البيت، ويوجّهني إلى طريقي. بالتأكيد لم أتوقع أنّني سأقلق أميرة روسية في نومتها، أو ربما تأمرُ حارسها الضخم بطردي.

فكّرت في أنّه لا يجب عليَّ مغادرة البيت في ذلك الوقت، حتى أُقدّم بعض الاعتذارات، وإذا أصرّت على إبداء العداوة، وقتئذ سأقدّم لها بطاقة هويتي. سيكون صعباً عليها الشك في أنَّ رجلاً دبلوماسياً قد يتعمّد القيام بفعل غير منطقي كذلك الفعل.

رغمَ خفوت الإضاءة في الغرفة التي وقفتُ فيها، استطعتُ رؤية الزوايا الممتلئة بأشجار النخيل، وجدرانها المغطاة بالسجاد الفارسي، تمامًا مثل الصالة، وعلقتْ في الهواء روائح لا يُخطئها أنفي، لسجائر روسية، وروائح خشبيّة قوية، ذكّرتني ببازارات مدينة فلاديفوستوك.

كان هناك بيانو كبير بالقرب من النوافذ المقابلة، ومنحوتة مسطحة ثقيلة من الخشب الأسود على الجانب الآخر من الغرفة، مُزيّنة بقطع عاجيَّة، يعلوها قماش من الحرير، يظللها، ويشبهُ القبَّة. انتشرَ أمام القبَّة فراء أبيض لدب قطبي، وضع على طاولة أشبه بطاولات القهوة التركية المنخفضة، عليها مصباح كحولي مضاء، وفنجانا قهوة ذهبيان.

لم أسمع أيَّة حركة من فوق السلالم، وقد مرت ثلاث دقائق كاملة، وقفتُ خلالها منتظرًا، مأخوذًا بتفاصيل تلك الغرفة، متعجبًا من التأخير، وسط صمت مريب. فجأة، بينما تعتادُ عيني أكثر على الإضاءة الخافتة، رأيتُ بروزًا من خلف المنحوتة، كما لو أنّها امتدت على طول ظهر كنبة، وعلى ذراعها يدُ رجل والجزء الأدنى من ذراعه، أصابني الذهول كمَن وجدَ آثار أقدام على جزيرة مهجورة.

من الواضح أنَّ الرجل كان جالسًا منذ دخولي الغرفة، حتى منذ دخولي البيت، وسمعَ الخادم وهو يطرق على الباب. لا أفهم لماذا لم يعلن وجوده، لكن خمّنت أنّه ضيف، ولم يجد سببًا ليشغل نفسه

بزوَّار الأميرة الآخرين، أو ربما - لسبب ما- لم يرغب في أن ألاحظهُ.

لم أستطع رؤية أيَّ شيء منه غير يده، لكن تملّكني شعور غير مريح بأنّه يحدّق فيَّ من خلال المنحوتة، وأنَّه لم يزل يفعل ذلك. حككتُ قدمي بالأرضية وأنا أمشي نحوه، وقلتُ: (أستميحكَ عذرًا يا سيدي). لم أتلقَّ أيَّ رد، ولم تنقلب اليد. بدا الرجل عازماً على تجاهلي، لكن كل ما رغبتُ فيه هو أن أعتذر عن تدخّلي وأغادر البيت.

سرتُ نحو القبَّة، وأطللتُ على ما خلفها، وجدتُ كنبةً مكدسةً بالوسائد، جلسَ الرجل على طرفها الأقرب لي. شاب إنجليزي، شعرهُ أصفر لامع، ووجهه برونزي، وملامحهُ حادة، يجلس ممددًا ذراعه على طول ظهر الكنبة، يستريح رأسهُ على وسادة. كان جسدهُ في وضع مريح للغاية، لكن فمه مفتوح، وعينيه جامدتان، ملؤهما رعب مطلق.

أدركتُ أنَّه ميت من النظرة الأولى. لبثتُ برهة عاجزًا عن التصرف، وفي الوقت ذاته على ثقة تامَّة بأنَّ ذلك الرجل لم يلقَ حتفه صدفةً، ولم يمتْ بسبب خلل عادي في قوانين الطبيعة. كان التعبير الثابت على وجهه أفظع من أن يُساءَ تفسيره، وأبلغ من أيَّة كلمات، حتى يؤكّد لي أنّه قد شاهدَ الموت يأتيه ويهدده قبل أن تحين نهايته.

دفعني يقيني بمقتل ذلك الرجل للبحث مِن حولي عن السلاح

بالفطرة، وفي اللحظة نفسها، بتُّ التفتُ خلفي كثيرًا، للتأكد من أنّي بمأمن، لكن ما زالَ الصمت المحيط بالبيت سيد الموقف.

سبقَ ورأيتُ عددًا كبيرًا من القتلى، لخلال خدمتي بالسرب البحري الآسيوي، إبَّان الحرب اليابانية الصينية، ذهبتُ إلى مدينة بورت آرثر بعد المذبحة، وبالتالي، رؤية رجل ميت لقيَ حتفه، لسبب وحيد أعلمهُ وهو الحرب، لا تُلقي الرعب في قلبي، لذا، على الرغم من معرفتي أنَّه لم يعد هناك أمل في بقاء ذلك الرجل على قيد الحياة، فعلتُ ما تمليه عليَّ آداب الموت، فاستشعرتُ نبضه، وبينما بقيتْ أذني منتبهة لأيّ صوت من الطابق الأعلى، رفعتُ قميصه، وضعتُ يدي على قلبه، وعلى الفور لمستْ أصابعي جرحًا مفتوحًا. سحبتُ أصابعي، ورأيتُ الدماء وقد بللتْها.

ارتدى الرجل ملابس السهرة، وعلى صدر قميصه الفضفاض وجدتُ قطعًا ضيقًا، ضيقًا جدًا، حتى إنني ميزته بالكاد في ذلك الضوء الخافت. لم يكن الجرح أعرض من أصغر شفرة لسكّين جيب، لكن عندما فتحتُ القميص، وكشفتُ عن صدره كاملًا، وجدتُ أنَّ السلاح -على قدر دقّته- كان طويلًا بما يكفي للوصول إلى القلب.

لستُ في حاجة لأخبركم بشعوري وأنا أقفُ بجانب جثة ذلك

الصبي؛ لأنّه بالكاد قد تخطّى صباه، أو بالأفكار التي خطرت ببالي. شعرتُ بأسف شديد على ذلك الغريب، ساخطًا كل السخط على قاتلِه، وفي الوقت نفسهِ -بكل أنانية- قلقًا على سلامتي، ومن السمعة السيئة التي ستلاحقني قطعًا.

كان ردّ الفعل الطبيعي هو ترك الجثة حيثُ ترقد، وموارة نفسي بين الضباب، لكنّي شعرتُ بأنَّ تعاقب الأحداث بهذا الشكل جعلَ مني الشاهد الوحيد على الجريمة، وواجبي أن أكون شاهدًا أمينًا، وأساعد في إثبات واقعة القتل تلك.

لم تشغلني للحظة احتماليّة أن تكون الواقعة انتحارًا وليست قتلًا؛ فالواقع هو أنَّ السلاح قد اختفى. كفاني التعبير على وجه الصبي لأقتنع -على الأقل أنا- بأنَّ الفتى لم يقتل نفسه. حزرتُ ذلك، وعليه، كانت الأولوية لاكتشاف مَن الموجود في البيت، أو إذا هربَ القاتل، فقد هربَ من البيت قبل أن أدخله. لقد رأيتُ رجلًا يغادره بالفعل، لكن كلّ ما يمكنني الجزم به هو أنّه شاب، يرتدي ملابس السهرة، وأنّه فرَّ مسرعًا، لم يتوقف حتى لإغلاق الباب من خلفه.

وجدتُ الخادم الروسي يغطّ في نومه عندما دخلت، وحتى لو لم تكن مهاراته عالية في استقبال الضيوف، فقد كان غبيًا، وساذجًا، يجهل ما يحدث، بريء من القتل كبراءتي. تبقّتْ ثالثتُنا الأميرة

الروسية التي توقّع وجودها، أو تظاهرَ بأنَّه يتوقع وجودها، قبل أن يتركني في غرفة مع رجل قتيل، وفي تلك اللحظة، إمّا أن تكون في الطابق العلوي مع الخادم، أو أنّها هربت من البيت بالفعل دون علمه.

بدا الافتراض الثاني أكثر احتمالًا، عندما استدعيتُ إلى ذهني مقدار مفاجأته بعدما فتحَ باب غرفة الضيوف ولم يجدها، مع ذلك، قررتُ تفتيش المكان بدافع من الواجب، وبعد بحث ثانٍ سريع عن السلاح، بين وسائد الكنبة، وعلى الأرضية، عبرتُ الصالة بحذر، ودخلتُ غرفة الطعام.

لم تزل الشمعة الوحيدة تومض، كشفتْ فقط عن المفرش الأبيض، وكست الظلال بقية الغرفة. التقطتُّ الشمعة، رفعتُها عاليًا فوق رأسي، تنقلتُ بين زوايا المنضدة. إمّا أنَّ أعصابي قد انهارت حتى لم تعد أيَّة صدمة لتفزعّني، مهما كانت، أو أنَّ عقلي صار حصينًا ضد الأهوال؛ لأنني لم أصرخ، ولم أتراجع، رغم هول ما رأيت؛ فسرعان ما اصطدمت أقدامي بجسد امرأة جميلة، ترقد ممددةً على الأرض، ذراعاها مفرودان على جانبيها، بالكاد كشفَ ضوء الشمعة المضطرب عن وجهها الأبيض وكتفيها. التفَّ حول عنقها عقد كبير من الألماس، يلمع ويضوي تحت ضوء الشمعة ببريق أخَّاذ. كانت المرأة ميتة، وبتُّ متيقنًا من الطريقة التي ماتت بها، حتى إنني نزلتُ

على ركبتيَّ بجانبها دون لحظة تردد واحدة، ووضعتُ يدي فوق قلبها. لمستْ أصابعي، ثانية، شقَّ جرح رفيع.

لم يكن لديَّ أدنى شك في أنَّها الأميرة الروسية، وعندما أخفضتُّ الشمعة بالقرب من وجهها تأكدتُ من ذلك؛ فقد كشفت ملامحها عن أصولها السلافية اليهودية النقية؛ عيون سوداء، وشعر أسود يميل إلى الزرقة، ثقيل وجميل، وبشرة بيضاء مشرَّبة بالحمرة. كانت امرأة فائقة الجمال رغم الموت.

نهضتُّ، وحاولتُ إضاءة شمعة أخرى من تلك التي أحملها، لكن باتت يدي ترتعش، حتى لم أستطع الجمع بين الفتيلتين. كنتُ أنوي البحث مرة أخرى عن ذلك الخنجر الغريب الذي استُخدم لقتل الصبي الإنجليزي والأميرة الجميلة، لكن قبل أن أتمكَّن من إشعال الشمعة الثانية، سمعتُ خُطا أقدام تهبط على السلم، وظهرَ الخادم الروسي عند مدخل الباب.

كان وجهي خفيًا في الظلام، وإلا لو كان رآهُ لأبدى بعض التردد. حتى تلك اللحظة لم أكن متأكدًا؛ فربما كان ذلك الرجل هو نفسهُ القاتل. رأيتُ وجهه بوضوح في ضوء الصالة، وقد ارتسمَ عليه تعبير يُنبئ عن حيرة غبية. تقدمتُ نحوه بسرعة، وقبضتُ بحزم على معصمه، قال: (ليست في الأعلى. لقد خرجت الأميرة. غادرَ

جميعهم)، سألته: (من هم الذين غادروا؟ من كان هنا؟) ردَّ: (الرجلان الإنجليزيان)، في تلك اللحظة، استشعرَ الرجل، من طريقة سؤالي، أنَّ أمرًا خطيرًا يتوقف على إجابته، وبدأ يدافعُ عن نفسه، منكرًا معرفته بأسماء الزوار، وأنَّه لم يرهما قط قبل تلك الليلة.

أعتقدُ أنَّ حدّة أسلوبي هي التي أخافته، لذا فككتُ قبضتي من حول رسغهِ، وسألته بهدوء أكثر: (منذ متى كانا هنا؟ ومتى ذهبا؟) أشارَ خلفه نحو غرفة الضيوف، وقال: (جلسَ أحدهما مع الأميرة، وجاء الآخر بعد أن قدَّمتُ لهما القهوة في غرفة الضيوف. تحدَّث الرجلان معًا، وعادت الأميرة إلى هنا، إلى المنضدة، جلستْ على هذا الكرسي، وأحضرتُ لها الكونياك والسجائر، ثم جلستُ في الخارج على المقعد. كانت ليلة عيد، فشربتُ، و ثملتُ. عذرًا سعادتكَ، لكنّي غرقتُ في النوم. عندما استيقظتُ، وجدتُ سعادتكَ واقفًا أمامي، لكنّ الأميرة والإنجليزيين قد رحلوا. هذا كل ما أعلم).

وثقتُ في أنَّ الرجل يخبرني الحقيقة. هدأ ذعره، بدا في حيرة، لكنّه لم يعد منزعجًا. ألححتُ عليه: (يجب عليكَ تذكّر اسمي الرجلين الإنجليزيين. حاول أن تتذكر، ماذا قالا لكَ عندما فتحتَ الباب لهما؟). عندئذ جمعَ انتباهه، ودعاني للّحاق به، وهو يركض بسرعة نحو غرفة الضيوف.

في الركن، أبعد ما يكون عن الكنبة، كان البيانو، تعلوهُ صينية فضية. رفع الصينية، مبتسمًا بفخر لذكائهِ، وأشارَ إلى بطاقتين عليها. التقطّتُهما، وقرأتُ الأسماء المنقوشة عليهما».

توقَّف الرجل الأمريكي عن الحكي، ألقى نظرة سريعة على الوجوه المحدّقة به، وكرَّر في تردُّد جَلِي: «قرأتُ الأسماء». صاحَ فيه البارون دون تفكير: «أكمِلْ».

تلجلجَ الأميركي بشدة، وكأنّه يخشى توريط نفسه أكثر، قال: «قرأتُ الأسماء. كان الاسمان ينتميان إلى العائلةِ ذاتها. كانا أخوينْ. أحدهما تعرفونه جيدًا. اسم الشاب، مستكشف إفريقيا، الذي ذكرهُ هذا السيد. أقصد كونت (7) عائلة تشيتني. كان الاسم الآخر لأخيه، اللورد آرثر تشيتني».

تراجعَ الرجال عن الطاولة، كأنّما انشقت الأرض من أسفل أقدامهم، وصاحوا في نفس واحد: «اللورد تشيتني!»، نظروا إلى بعضهم البعض، وعادوا إلى الأميركي، وعلتْ وجوههم كل تعبيرات القلق والشك. صرخ البارون: «هذا مستحيل! لماذا؟ يا سيدي الفاضل، لم يعُد صغير عائلة تشيتني من إفريقيا حتى الأمس، لقد أعلنتْ صحف المساء هذا الخبر».

عقدَ الأميركي لسانه، عضَّ على شفتيه، ثم قال: «سيدي، أنتَ على صواب تمامًا. لقد عاد اللورد تشيتني إلى لندن صباح أمس، ووجدتُ أنا جثّته مساء أمس».

استفاقَ أصغر الأعضاء الموجودين أولًا، بدا اهتمامه بهوية الرجل القتيل أقلّ من أن يقطع عليه سرد القصة، صاح عليهم: «أرجوكم، من فضلكم، دعوهُ يكمل»

وتوجّه للأميركي: «ما الذي حدثَ بعد ذلك؟ قلتَ أنكَ وجدتَ بطاقتين. كيف عرفتَ أيُّهما تخصُّ الرجل القتيل؟»

انتظرَ الأميركي حتى توقفت جلبة المتعجّبين قبل أن يردّ. أكملَ وكأنَّ أحدًا لم يقاطعه: «لحظة أن قرأتُ الأسماء على البطاقتين، ركضتُ نحو المنحوتة، ركعتُ بجانب جثة الرجل، وبدأتُ أبحث في جيوبه. سرعان ما عثرتُ على محفظته، ووجدتُ فيها كل البطاقات المدوَّن عليها (اللورد تشيتني)، حُفرَ اسمه أيضًا على ساعتهِ وعلبة سجائره. أكَّدت لي تلك الأدلة، مع حقيقة لون بشرته البرونزي، ووجنتيهِ المحمومتين، أنَّ الجثة كانت لمستكشف إفريقيا، وأنَّ الشاب الذي مرَّ بي هاربًا في الضباب كان آرثر، شقيقهُ الأصغر.

انكببتُ على التفتيش، حتى نسيتُ أمر الخادم، وبينما لم أزل جاثيًا على ركبتيَّ، سمعتُ صرخة من خلفي، التفتُّ، ورأيتُ الخادم يحدق

في الجثة، وقد تملّكه الرعب. لم أكد أنهض، حتى أطلقَ صرخةً مذعورةً، واندفعَ نحو الصالة، وسبقني إلى الباب المؤدي إلى الشارع. وثبتُ خلفهُ مطالبًا إيّاه بالتوقف، لكنَّه فتحَ الباب قبل أن أصلَ إلى الصالة، ورأيتهُ يهرع نحو الضباب الأصفر.

تفاديتُ التعثر بالقفز، وجريتُ على ممشى الحديقة، وبمجرد الاقتراب، أُوصدَتْ البوابة أمامي. كان عليَّ فتحُها فورًا، واتّباع صوت خطوات أقدام الرجل. أسرعتُ من خلفه عبر الشارع الواسع، سمعَ خطواتي هو الآخر، فتوقَّف عن الركض، وسادَ صمت مطبق. اقتربتُ منه حتى تهيَّأ لي سماع صوت لهاثه، حبستُ أنفاسي لأسمعه، لكن لم أستطع تمييز أيّ شيء سوى الضباب الذي حالَ بيننا، وصوت الموسيقى المجرية على بُعد، والتي سمعتُها عندما فقدتُ طريقي، في المرة الأولى.

كانت حزمة الأضواء المتسللة عبر الباب الذي تركتهُ مفتوحًا من خلفي هي كل ما تمكنتُ من رؤيته، ومن ورائه مصباح الصالة، يتهادى ضوءُه في الغيوم، لكن بينما كنتُ أنظر إليه، لمحتُ شعلة المصباح تتأرجح بعنف، تخفتُ وتضيء، والباب أيضًا، كان في مرمى نفس تيار الهواء، ورأيتهُ ينغلق ببطء. كنتُ أعرف أنَّه إذا انغلق، لن أستطيع دخول البيت مرة أخرى، فاندفعتُ نحوه بجنون، أتذكر

أنني صرختُ عليه، كما لو أنّه إنسان يمكنني إجبارهُ على طاعتي، لجمتُ خطواتي بالقرب من السور، ثم انزلقتُ بقوة على الرصيف.

شعرتُ بدوار عندما وقفتُ على ساقيَّ، كان ذهني مشوشًا، وعلى الرغم من اعتقادي أنّي كنتُ أسير باتجاه الباب، اكتشفتُ أنني كنتُ أسير عكسه -على الأرجح- وبينما أبحثُ عن طريقي في الظلام، أنادي محمومًا على الشرطة، لم تلمسْ أصابعي سوى الضباب المتدفق، أمَّا السور الحديدي الذي سعيتُ من أجله، فبدا وكأنّه قد ذاب. بقيتُ أضرب الضباب بكلتا يديَّ، كَمَن يلعب الاستغماية، أدورُ بسرعة في حلقات، ألعنُ غبائي جهارًا، ولا أتوقفُ عن الصراخ طلبًا للنجدة. في النهاية، أجابني صوت قادم عبر الضباب، ووجدتني محاطًا بهالة ضوء من فانوس شرطيّ.

هكذا انتهتْ مغامرتي. كل ما سأرويهِ الآن هو ما أطلعتْني عليه الشرطة.

قادني الرجل إلى قسم الشرطة، وهناك سردتُ ما سمعتموه لتوّكم. أخبرتُهم أنَّ البيت الذي عليهم البحث عنه على الفور، يقع ضمن مجموعة منازل تطل على شارع، في نطاق لا يتجاوز مئتي ياردة من ثكنات نايتسبريدج، وهناك مجموعة أشخاص يرقصون على موسيقى لفرقة مجريّة على بعد حوالي خمسين ياردة، وهناك سور حديدي أمام

البيت يرتفع حتى خاصرة رجل بالغ، ثم حررتُ محضرًا بكل ما قد يساعدهم.

بكل ما أصبحَ لديهم من معلومات، تلقّى عشرون رجلًا، مرة واحدة، أوامر بالخروج في الضباب، والبحث عن البيت، ثم شكروني وتحفّظوا عليَّ للإقامة في البلد إثرَ اعترافاتي، وأُرسِلَ المفتش لايل بنفسهِ إلى بيت اللورد إيدام، والد تشيتني، مع أمر بالقبض على اللورد آرثر.

تلقيتُ اتصالًا من المفتش لايل هذا الصباح، وعرفتُ منه نتيجة تحقيقات الشرطة للحدث الذي وصفتهُ قبل قليل. يبدو أنّني همتُ بعيدًا جدًا في الضباب؛ فلم يجدوا البيت حتى ظهر اليوم، ولم يتمكّنوا من القبض على اللورد آرثر؛ فلم يعد إلى بيت والده منذ ليلة أمس، ولا أثر له، لكن توصلوا إلى استنتاجات، وهي أنَّ جريمة القتل ارتُكبت على يد اللورد آرثر، من خلال بحث الشرطة عن ماضي الأشخاص الذين وجدتهم في ذلك البيت المفقود.

أخبرني المفتش لايل أنَّ قصة افتتان اللورد تشيتني بالأميرة الروسية معروفة للجميع؛ فقبلَ نحو عامين، كانت الأميرة زيشي - كما تحب أن يُطلق عليها- وتشيتني يقضيان أوقاتهما معًا على الدوام، وأبلغَ تشيتني أصدقاءه أنّهما على وشك الزواج.

أُشيعَ عن المرأة سوء السمعة في قارتين، وعندما علم اللورد إيدام بحبّ ابنه لها، ناشدَ الشرطة بفتح سجل قضاياها السابقة. بناءً على اضطراره إفشاءَ سرِّها، توصلت الشرطة إلى الكثير من المعلومات المتعلقة بها، وعن علاقاتها بعائلة تشيتني. أطلعت الشرطة اللورد إيدام على حقيقة أنَّ السيدة زيشي عملت ذات مرة كجاسوسة في القسم الثالث لمستشارية الإمبراطورية الروسية، لكن، وبعد أن طردتها حكومة بلدها، صارت تكسب قوتها من دهائها، وجمالها، وابتزازها الآخرين.

قدَّم اللورد إيدام سجل القضايا إلى نجلِه، لكن ربما علمَ تشيتني بالقصة مسبقًا، أو أقنعتهُ المرأة بألّا يصدق شيئًا عنها، حتى نشبَ خلاف بين الأب وابنه، افترقا في إثره، وعدّلَ الماركيز(8) وصيتَّه بعد يومين، تاركًا كل أمواله إلى الأخ الأصغر، آرثر. لم يقوَ الأب على تجريد تشيتني من اسم العائلة، أو حرمانه من الأرض والممتلكات، لكنّه أقسمَ أنّهُ لو رأى ابنهُ تلك المرأة ثانية، فسيدعهُ لتحمّل نتيجة أفعاله بمفرده، وسيطرده دون بنس واحد.

حدثَ ذلك منذ نحو ثمانية عشرَ شهراً، عندما يَئِس تشيتني من أمر زواجه بالأميرة، ورحلَ دون إخطار أحد، ليصطاد، ويستكشف إفريقيا الوسطى. لم تَرِد أخبار عنه، سوى مرَّتين، عندما أعلنت وفاتهُ

بالحمى وسط الغابة، ومرة أخيرة عبر تجّار وصلوا إلى الساحل، أبلغوا أنّهم رؤوا جثته.

صدَّقَ الجميع تلك الأنباء باعتبارها قاطعة بلا شك، وأصبحَ آرثر الوريث الوحيد لملايين إيدام. بدأ آرثر في استلاف مبالغ ضخمة من مقرضي الأموال؛ معتمدًا على قوة فرضية موت تشيتني. معلومة غاية في الأهمية، كانت سببًا في يقين الشرطة أنَّ الديون هي السبب الذي دفعه لقتل أخيه.

عاد اللورد تشيتني فجأة من الموت بالأمس كما تعلمون، بعد عامين كانت فيهما الأخبار عن موته هي الحقيقة السائدة، ما أضافَ أهمية لنبأ رجوعه، وعلا اسمه أعمدة مملوءة بتفاصيل عودته في كل صحف الظهيرة، لكن، من الواضح، أنَّ حبه للأميرة زيشي لم يفتر رغم الغياب، فكما نعلم، أخذ يبحث عنها بعد وصوله إلى لندن ببضعة ساعات. عرفَ أخوه أيضًا بنبأ ظهوره من جديد من خلال الصحف، ومحتمل أنّه اشتبهَ في أول بيت قد يزورهُ، ثم تبعهُ إلى هناك، ووجده.

كان العاشقان بمفردهما يتناولان القهوة في غرفة الضيوف كما أخبرنا الخادم، ثم انسحبت الأميرة، وانتقلت إلى غرفة الطعام، تاركة الأخوين معًا، ولا أحد يعرف ما الذي دار بينهما.

عرفَ اللورد آرثر، فور رؤية أخيه، أنّه إذا اكتُشف أمره، لن يكون الوريث الوحيد، وسيتكالب عليه الدائنون لاسترداد أموالهم. تعتقدُ الشرطة أنّه استعجلَ البحث عن أخيه ليتوسل إليه من أجل إقراضه المال وتغطية ديونه، وإذا أخذنا في الاعتبار أنَّ المبلغ المطلوب كان مئات الآلاف من الجنيهات، فمن المنطقي أن يرفض تشيتني إعطاءه المال.

لم يعلم أحدٌ بذهاب آرثر للبحث عن أخيه؛ فقد كانا بمفردهما. من المحتمل، أنَّ جعل آرثر نفسه الوريث الوحيد بلا رجعة في ذلك الوقت، في فورة من خيبة الأمل، وجنون مدفوع بالخزيان الذي أصابهُ من رفض أخيه لطلبه. لن يكون قتلهُ لأخيه مجديًا لو بقيت المرأة على قيد الحياة؛ عندئذٍ، سيكونُ من المفترض أنّه عبرَ الصالة، وقتلَ الشاهدة الوحيدة على جريمتهِ البشعة، بالسلاح نفسهِ الذي نصّبه وريثاً للورد إيدام. كان الشخص الآخر الوحيد الذي من الممكن أن يراه نائمًا، في حالة سكر، وهي الحقيقة التي يدينُ لها بحياته بلا شك».

اختتمَ الملحق البحري الأميركي حديثه، وقد مالَ بجذعه إلى الأمام، وأخذ يشير بإصبعه مع كل كلمة ينطق بها، قائلًا: «رغمَ ذلك، ارتكبَ اللورد آرثر خطأً فادحًا؛ فتركَ باب البيت مفتوحًا في عجالة منه، وبالتالي تركَ فرصة لدخول أول العابرين، كما نسيَ أنّه أعطى

الخادم بطاقتهُ عند وصوله. يمكن لقطعة الورق تلك اقتيادهُ إلى حبل المشنقة في النهاية. في غضون حديثنا هذا، لم يعد له أثر تمامًا، ترقدُ جثة أخيه، وجثة المرأة التي عشقها أخوهُ في مكان ما، في واحد من بين ملايين شوارع العاصمة الممتدة، في بيت مقفول وخالٍ. لم يتمّ العثور عليهما، لم يتمّ دفنهما، حتى موتهما مرَّ دونما انتقام».

لم يحرك الرجل ذو اللؤلؤة السوداء ساكنًا خلال النقاش الذي تبعَ ختام قصة الملحق البحري. في مقابل ذلك، نهضَ، وأشارَ إلى خادم وقفَ في ركن منزوٍ من الغرفة، همسَ في أذنه بجدّية، ثم عاد إلى المنضدة مسرعًا، بعدما صدرت حركة مفاجئة من السير أندرو. هتفَ الرجل ذو اللؤلؤة: «أحتاجُ توضيحاً لنقاط عدة في قصة السيد سيرز»، قال متوسلًا: «تفضّل سير أندرو، امنحْنا شرف الاستماع لرأي خبير. أنا لا أهتمّ باستنتاجات الشرطة، أودُّ معرفة تفسيرك أنت». قامَ السير أندرو عن كرسيه على مضض، وقال: «لا أودُّ شيئًا أكثر من البقاء ومناقشة ذلك، لكن من الضروري جدًا أن أنصرف إلى مجلس العموم. ينبغي أن أكون هناك منذ وقت»، التفتَ نحو الخادم، وأمرهُ باستدعاء عربة.

ما كانَ من الرجل ذي اللؤلؤة السوداء إلا أن رمقَ الملحق البحري بلطف، وحثّه قائلًا: «هناك بالتأكيد كثير من التفاصيل التي لم تخبرْنا

بها، معلومات قد نسيتَها». قاطعه البارون بسرعة، وقال: «أنا متأكد أنّه لم ينسَ شيئًا؛ لأنّه لن يمكنني الانتظار أكثر لسماعه». صرَّح الملحق البحري: «لقد انتهت القصة؛ فحتى يتمّ القبض على اللورد آرثر، أو العثور على الجثث، ليس هناك أكثر ممَّا قيل، سواء عن تشيتيني أو الأميرة زيشي».

قاطعهُ الرجل صاحب الجسد الرياضي، وربطة العنق السوداء، قائلًا: «ربما انتهت بالنسبة للورد تشيتيني، لكن سيظلّ هناك دومًا الكثير ليُروى عن الأميرة زيشي. أنا أعرف قصصًا عنها تكفي لملء كتاب. لقد عاشت حياة استثنائية». أسقطَ المتحدث عقب سيجارته في فنجان القهوة، أخرجَ علبتهُ من جيبه، سحبَ لفافة جديدة، وبينما يفعل ذلك، ضحكَ، ورفعَ العلبة، التي لاحظها الآخرون. كانت علبة سجائر عادية، مكسوة بعناية بجلد خنزير، مع مشبك فضّي. قال: «لقد حاولتْ سرقتي في المرة الوحيدة التي رأيتُها فيها». انتبهَ إليه البارون، حدّقَ فيه عن كثب، وسألهُ: «حاولتْ سرقتك؟»، أكملَ الرجل ذو ربطة العنق السوداء، بنبرة صوت امتزجَ فيها التعجب بالحسرة، وقال: «حاولتْ أن تسرق منّي علبة السجائر، وعقد زوجة الإمبراطور الماسي». دهشَ البارون، صاحَ فيه: «عقد ألماس لزوجة الإمبراطور!». ألقى نظرة سريعة ومرتابة على المتحدّث، وأخرى على الآخرين حول المنضدة، لكن لم ترتسم على وجوههم أيّة تعبيرات

سوى اهتمام فاتر.

كرَّر الرجل ذو ربطة العنق السوداء كلامه، وقال: «نعم، عقد من الألماس لزوجة الإمبراطور»، أضافَ: «تلقّيت أوامر بتسليمه للسفير الروسي في باريس، والذي كان سيرسلهُ بدوره إلى موسكو. أنا مبعوث الملكة». ردَّ السير أندرو بنبرة تنفيس: «نعم، فهمت. أنتَ تقول لنا الآن أنَّ الأميرة زيشي نفسها، إحدى ضحايا جريمة القتل الثنائية، حاولتْ أن تسرق علبة سجائرك»، تمتمَ مبعوث الملكة، بصوت خفيض، وقال: «وعقد زوجة الإمبراطور الماسي. تلك لا تعدو كونها قصة، لكنّها تمنحكَ فكرة عن شخصية تلك المرأة. وقعتْ السرقة خلال رحلتي بين باريس ومارسيليا».

قاطعهُ البارون في ردّ فعل مفاجئ، وصاح: «لا، لا»، أخذ يهزّ رأسه يميناً ويساراً محتجًا، وهو يقول: «لا تُغوِني بحديثكَ. لا يمكنني الاستماع فعلاً. يتحتم عليَّ الوصول إلى مجلس العموم خلال عشر دقائق». قال مبعوث الملكة، وهو يلتفت نحو بقية السادة الجلوس: «أنا آسف، لكن أتساءل عمَّا إذا كان لدى السادة الآخرين الرغبة نفسها».

علتْ جلبة من الهمس الخفيض في الغرفة. أحنى مبعوث الملكة رأسهُ في استعداد، وأخذ رشفة تمهيدية من كأسه. في اللحظة نفسها،

دخلَ الخادم الذي تحدَّثَ معه الرجل ذو اللؤلؤة السوداء، دسَّ قطعة ورق في يدهِ، حدَّق فيها، تجهَّم قليلًا، ثم ألقاها تحت المنضدة.

مالَ الخادم على البارون، وقال: «سير أندرو، عربتكَ في الانتظار»، استهلَّ مبعوث الملكة قصّتهُ قائلًا: «يعادل ثمن العقد عشرين ألف جنيه، كان هدية من ملكة بريطانيا للاحتفال بـ...». أبدى السير أندرو انزعاجهُ الشديد، قاطعهُ، وقال: «بشرفي، أقسمُ بأنَّ تلك الطريقة هي الأكثر استفزازًا. لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك، لكنَّ رغبتي في سماع القصة أقوى»، استدارَ بعصبية إلى الخادم، وأمرهُ: «قلْ للسائق أن ينتظرني»، ثم جلسَ مرغمًا على الكرسي، غارقًا في شعوره بالذنب، كولد متغيّب عن مدرسته.

ابتسمَ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء ابتسامة متملّقة، قرعَ المنضدة، وقال: «انتباه يا سادة، انتباه إلى قصة مبعوث الملكة وعقد زوجة الإمبراطور الماسي».

---

(1) وسام ربطة الساق: هو أرفع الأوسمة البريطانية، يحصل عليه عدد محدود للغاية من الملوك وأعضاء العائلة الملكية البريطانية، وملك بريطانيا وحده من يمنح عضويته.

(2) توم وجيري في لندن: السلسلة الأكثر مبيعًا في القرن التاسع عشر، ألفها بيرس إيغان، وقدّم خلالها مشهدًا اجتماعيًا للتدرج الطبقي في لندن.

(3) المحفة: فئة من المركبات على شكل كرسي أو سرير بلا عجل، وله ذراعان من كل ناحية، ويرفعه الرجال على الأكتاف لنقل المرضى أو الخاضعين للمحاكمة والتعذيب.

(4) البارون: هو الرتبة الأدنى بين مراتب النبلاء الخمس، ويعني «الرجل الحر» في الفرنسية القديمة. يقتصر استخدامه على الوثائق الرسمية، ويُستبدل عادة بـ «لورد»، ويلُقب به البعض مجاملة، لكن يسود إطلاقه على أعضاء البرلمان في بريطانيا واسكتلندا.

(5) السرقة الكبرى: إحدى روايات إميل غابورياو، أهم المؤلفين في تاريخ الخيال البوليسي، مزجَ الواقع بالخيال، واستوحى آرثر كونان شخصيتهُ شارلوك هولمز من أعمال غابورياو.

(6) ويليام إيوارت غلادستون: رئيس وزراء بريطانيا الأسبق، كان محبًا للشعر اليوناني القديم، وأبرز من حلل استخدام الألوان في ملحمة الإلياذة والأوديسة.

(7) كونت: أو الإيرل، وهي المرتبة الثالثة بين النبلاء، ويُمنح اللقب لشباب الطبقة الأعلى في بريطانيا، أو مجاملة لقرابة بنبيل، ويمكن مناداة الإيرل والكونت بلقب لورد.

(8) الماركيز: لقب يشير إلى شخص من المرتبة الثانية بين مراتب النبلاء، بعد

الدوق، ويصحّ مخاطبة الماركيز بلقب لورد.

الفصل الثاني

سردَ مبعوث الملكة قصَّتهُ: «كان العقد هدية من ملكة بريطانيا إلى زوجة الإمبراطور الروسي، احتفالًا بتتويج الإمبراطور. علمتْ وزارة خارجيتنا بنيَّة السفير الروسي لدى باريس التوجّه إلى موسكو لحضور حفل التتويج؛ فتلقيتُ الأوامر بالسفر إلى باريس، وتسليمهِ العقد، لكن عندما وصلتُ إلى باريس لم أجدهُ، فقد توقَّع قدومي بعد أسبوع؛ لذا قرَّر قضاء إجازة في نيس، لبضعة أيام. طلبَ مني الموظفون ترك العقد في عهدتهم بالسفارة، لكن كان عليَّ العودة بإيصال استلام من السفير نفسهِ، فقررتُ التوجّه بسرعة إلى نيس، وهناك لن تبعدني المسافة عن مونت كارلو أكثر من ألفي ميل، وربما

تتاح لي فرصة الاستجمام لبعض الوقت، خلال رحلة سعيي لتنفيذ مهمَّاتي على أتمّ وجه.

المهم، كيفَ علمت الأميرة زيشي بشأن العقد، وجاءت باحثة عنهُ؟ لا أدري، لكن يمكنني تخمين السبب. كما سمعتم للتو، فقد عملتْ كجاسوسة في وقت ما، لصالح الحكومة الروسية، وأبقتْ هي على علاقتها بعديد من العملاء الروسيين في لندن بعد طردها من روسيا. من المحتمل أنّها عرفتْ من أحدهم أنَّ العقد في طريقهِ إلى موسكو، وأنَّ أحد مبعوثي الملكة هو المفوض بمهمة نقله. مع ذلك، أشكُّ في

أنَّ تلك المعلومات كانت كافية لتساعدها، لو لم تكن متيقّنة من أمر آخر، والذي لا أفترض معرفة أحد به في العالم، سوى أنا ورجل آخر، والغريب بما فيه الكفاية، أنَّ الرجل الآخر كان أحدَ مبعوثي الملكة أيضًا، وصديقاً لي.

لا بدَّ أن تعرفوا أنّني كنتُ أخفي الطرود دائمًا، وأحرصُ عليها أشدّ الحرص، بطريقتي الخاصة، حتى وقت السرقة. تعلمتُ تلك الطريقة من مسرحية تُسمى (قصاصة من الورق). تحكي عن رجل يريدُ إخفاء مستند بعينه، يعلم أنَّ هناك من سيأتي سراً، باحثًا عنه، لذلك وضعهُ في ظرف ممزَّق، ورفعهُ على أحد أرفف مكتبتهِ. النتيجة، هي أنَّ المرأة المكلفة بتفتيش البيت، بحثتْ في كل الأماكن غير المتوقعة، وتجاهلت هذا الظرف الممزَّق الملقى في مرمى بصرها.

في بعض الأحيان، يكلّفوننا في الوزارة بنقل أوراق وطرود في غاية الأهمية، حول شؤون أوروبية، وفي أحيان أخرى ننقل سجائر فخمة، أو توجيهات لخيَّاطي البلاط الملكي. نعرفُ ما الذي نحمله أحيانًا، ولا نعرف أحيانًا أخرى. عادةً ما يخبروننا إذا كان في الطرد مبلغ ضخم من المال أو معاهدة، لكن القاعدة أنَّنا لا نعرف شيئًا عن محتوى الطرود؛ لذلكَ، نتعامل بالقدر نفسهِ من الحرص في كل مرة على سبيل الاحتياط، على الرغم من علمنا أنّ الطرد يحوي تهديداً بقطع

علاقات دولية، أو مجوهرات التاج الملكي.

يحملُ زملائي الطرود الرسمية في حقيبة دبلوماسية كقاعدة، هكذا، وبكل وضوح، كخادمة تحمل حقيبة مجوهرات سيّدتها. يعلم كلّ مَن يراها أنَّ بداخلها شيئًا ذا قيمة، ما يزيدُ احتماليّة السرقة. حسنًا، قررتُ حفظ المتعلقات الملكية الهامّة في أقلّ الأماكن ترجيحًا لظنّ أيّ شخص قد يبحث عنها، بعدما شاهدتُ مسرحية (قصاصة من الورق)؛ لذا، اعتدتُ على إخفاء الوثائق التي أستلمُها في حذاء ركوب الخيل، أمَّا الأشياء الصغيرة، كالمال أو الجواهر فكنتُ أحفظها في علبة سجائر قديمة.

بعدما خصَّصت علبتي لهذا الغرض، اشتريتُ واحدة جديدة، تشبهُها تمامًا، لسجائري، لكن، حفرتُ حروف اسمي الأولى على جانبيّ العلبة الجديدة، لتفادي الخلط بينهما، فبمجرَّد لمسها، حتى في الظلام، أفرّقُ بينهما، من الحروف المحفورة عليها. لا أحدَ يعرف ذلك عدا مبعوث الملكة الذي حدَّثتكم عنه. ذات مرة، غادرنا باريس سويًا على متن قطار الشرق السريع. كنتُ متجهًا إلى القسطنطينية، وكان عليهِ التوقف في فيينا. أطلعتهُ على طريقتي الخاصة في إخفاء الأشياء خلال رحلتنا، وأريتهُ علبة سجائري.

إذا كنتُ أتذكَّرُ جيدًا، فقد كان في العلبة وسام القديس ميخائيل

والقديس جرجس (9)، الذي أمرت الملكة بإرساله إلى سفيرنا. أبدى المبعوث إعجابهُ الشديد بخُدعتي، وأخبرَ الأميرة بسرِّي، كقصة مسلية، عندما قابلها بعد أشهر عدة. لم تكن لديه أدنى فكرة عن أنَّها جاسوسة روسية سابقة، لم يكن يعرف عنها شيئًا على الإطلاق، عدا كونها امرأة جذابة للغاية. كان تصرفًا طائشًا، لكن ربّما لم يشكّ في أنّها ستستغلّ تلك المعلومة.

لاحقًا، بعد حادثة السرقة، تذكرتُ أنّي أخبرتُ هذا الشاب بأمر مخبئ السرِّي، وعندما رأيته ثانية سألتهُ عن ذلك. حزِنَ بشدة، قال إنّهُ لم يرَ أيَّة أهمية للسر، وتذكَّر أنَّه قصّهُ على العديد من الناس، ومن بينهم الأميرة زيشي. اكتشفتُ من خلال ذلك أنَّها مَن قامت بسرقتي، لأنَّها ظلت تتبعني منذ اللحظة التي غادرتُ فيها لندن، ولأنَّها علمت أنَّ الألماس مخبأ في علبة سجائري تحديدًا.

غادرَ قطاري باريس، متجهًا إلى نيس، في العاشرة صباح ذلك اليوم. عادةً ما أخبرُ ناظر المحطة أنّني أحد مبعوثي الملكة كلّما سافرتُ في الليل، ليعطيني مقصورة نوم خاصة، لكنّي أرضى بالمتاح خلال النهار. في ذلك الصباح، وجدتُ مقصورة متاحة، ومنحتُ حارس القطار بقشيشًا، ليعطّل حجز بقية المقاعد، ليسَ خوفًا من فقدان الألماس، لكن أردتُّ تدخين السجائر. أغلق الحارس الباب

من خلفه، وبمجرد سماع جرس الإنذار الأخير يُقرع، اعتقدتُ أني سأسافر وحدي؛ فبدأتُ ترتيب أغراضي، وأخذتُ راحتي.

خبَّأتُ الألماس في علبة السجائر بداخل جيب صدريّتي، ولأنَّها بدت من خلالها كحزمة ضخمة؛ أخرجتُ العلبة، بنيَّة وضعها في حقيبة يدي. كانت حقيبة صغيرة، كحقائب وكلاء المراهنات، أو حقائب اليد تلك التي يحملها السُّعاة. أرتديها فتكون متدلّية بحزام على الجانب الآخر من كتفي. لا يهمُّ إذا كنتُ جالسًا أو ماشيًا، فلن تفارقني أبدًا.

أخرجتُ العلبة التي حفظتُ فيها العقد من جيبي الداخلي، والعلبة التي أضعُ فيها سجائري من الحقيبة الصغيرة؛ وبينما كنتُ أبحث فيها عن علبة الثقاب، وضعتُ العلبتين بجانبي على الكرسي. أقلعَ القطار في تلك اللحظة، وسمعتُ صوت خشخشة في قفل باب المقصورة في الوقت نفسه. رأيتُ اثنين من الحمّالين يفتحان الباب، يتقدَّمان سيدة، حشرا حقائبها ومظلّتها، وغادرا.

مددتُ يدي إلى الألماس، في ردة فعل عفويَّة، وخبَّأته بسرعة في الحقيبة الصغيرة، دسستهُ بعيدًا في قاعها، وأغلقتُ قفلها الزنبركي. بعد ذلك، وضعتُ سجائري في جيب معطفي، وأنا أعي أنَّ هناك امرأة تسافر بصحبتي، ولم يعد التدخين لائقًا.

سقطَ شيء من أمتعتها عند قدمي، واستقرَّ طرف غطائها إلى جانبي. فكَّرتُ لو أخفيتُ حقيقة أنَّ وجودها غير مرحَّب به، وحاولتُ أن أكون لطيفًا معها، ربما تسمح لي بالتدخين؛ وعليه رفعتُ حقيبة يدها عن الأرض، وسألتُ أين أضعها. بينما أتوجَّه لها بالحديث، نظرتُ إليها للمرة الأولى، ورأيتُ امرأة ذات جمال استثنائي. ردَّت بابتسامة ساحرة، ورجتْني ألا أشغل بالي، ثم رتَّبت أغراضها بجانبها، فتحتْ حقيبة ملابسها، وأخرجت علبة سجائر ذهبية. سألتني: (هل تمانع لو دخَّنت؟). ضحكتُ وطمأنتُها بأنّني كنتُ متردداً للغاية، خشية أن تمانع هي، قالت: (إذا كنتَ مدخناً، فعليكَ تجربة واحدة من هذه، فهي ملفوفة خصيصًا لزوجي في روسيا، وأعتقد أنَّها ستروق لك). شكرتُها، أخذتُ واحدة من علبتها، ووجدتُها أفضل كثيرًا من سجائري، فبقيتُ أدخّن سجائرها طوال الرحلة.

يجبُ عليَّ إخباركم أنَّنا انسجمنا سوياً بدرجة كبيرة. خمَّنتُ من النقوش على علبة سجائرها، وأسلوبها الأرستقراطي -على نحو يفوقُ أيَّة امرأة قابلتُها في حياتي- أنَّها إحدى الشخصيات الهامّة. كان مظهرها أرقى من مجرد سيدة نبيلة، وتصرَّفتُ معها باعتبارها نجمة مجتمع، لديها ما يكفي من النفوذ، لتتعامل معي بتلك الحميمية.

قرأتْ في روايتها في البداية، ثم ألقتْ بعض التعليقات على المناظر الطبيعية، و في النهاية، أخذنا نناقش السياسات الحالية في القارّة. تحدثتْ عن كل المدن الأوروبية، وبدتْ تعرف كل شخصية تستحق المعرفة. لم تقل شيئًا واحدًا عن نفسها، عدا أنَّها كانت تكرر عبارات على فترات قصيرة، مثل: (عندما أقامَ زوجي في فيينا)، (عندما ترقى زوجي في روما). في مرة من المرات قالت: (لقد رأيتكَ مرارًا في مونت كارلو. رأيتكَ عندما فزتَ ببطولة رماية الحمام). أخبرتُها أنَّني لا أصطاد الحمام، أظهرتْ قليلاً من الدهشة، وقالت: (أستميحكَ عذرًا يا سيدي، اعتقدتُ أنكَ مورتون هاميلتون، البطل الإنجليزي).

في الواقع، أنا أشبهُ هاميلتون، لكنّي الآن أعتقد أنَّها كانت حيلة لإقناعي بعدم معرفتها أيَّ شيء عن هويتي الحقيقية. لم تكن في حاجة للكذب على الإطلاق، فلم يخالجني أيُّ شك فيها، وكنتُ مسرورًا جدًا بمرافقة تلك الفاتنة. لم أنتبهْ للأمر الوحيد الذي يثيرُ الشك بالفعل، وهو أنَّها في كل محطة، كانت تختلقُ أعذارًا تافهة، لأخرجَ من المقصورة. تظاهرتْ بأنَّ معها خادمة، تسافرُ على نفس القطار في إحدى عربات الدرجة الثانية، وما برحتْ تردِّد أنَّها لا تتخيل كيف لتلك المرأة ألا تأتي لتعتنيَ بها، ولو لم تظهر الخادمة في المحطة التالية، سيكونُ لطفًا مني إذا خرجتُ، وأحضرتُ لها أيًّا كان ما ادّعتْ أنها تحتاجه.

سحبتُ حقيبة ملابسي من على الرفّ لأخرجَ رواية، وتركتُ الحقيبة على المقعد المقابل لي، في أبعد أركان المقصورة عن مقعدها. ذات مرة، بعدما عدتُ إليها بفنجان الشيكولاتة الساخنة، أو من بعض المهام الحمقاء الأخرى، وجدتُها تجلس في آخر المقصورة، وكلتا يديها على حقيبة ملابسي. نظرتْ إليَّ دون أن يرمش لها جفن، دفعتْها بحرص إلى الركن، وقالت: (انزلقتْ حقيبتكَ على الأرض. لو وضعتَ بها أيَّة قوارير، فمنَ الأفضل أن تلقي نظرة، وتتأكد من أنَّ شيئًا لم ينكسر).

أقسمُ الآن أمامكم، أنَّني كنتُ أبلهَ، حتى إنني فتحتُ الحقيبة، وألقيتُ نظرة طويلة على أغراضي. لابدَّ وأنَّها ظنَّتني ممسوسًا. أستشيطُ غضبًا كلّما تذكرتُ ذلك، لكن على الرغم من غبائي وذكائها، لم تفز بأيِّ شيء من إبعادي عن المكان، لأنَّ ما تريدهُ موجود في حقيبة اليد، وفي كل مرة أخرجتني فيها من المقصورة، كانت حقيبة اليد معلقة على كتفي.

تغيّرَ سلوكها بعد واقعة حقيبة الملابس؛ إمَّا لأنَّها فتَّشت طويلًا خلال فترات غيابي، أو لأنَّها رأت كل ما فيها بينما كنتُ أبحث أمامها عن القوارير المكسورة. من المؤكد أنَّها توصلت إلى أنَّ علبة السيجار التي تبحث عنها من أجل الألماس، لابدَّ وأنَّها في الحقيبة

المعلقة برقبتي، وصارت تخطّط للحصول عليها منذ ذلك الوقت. بدأ توتُّرها يظهر بشدة، سقطَ قناع السيدة الأرستقراطية، وسقطت معه حميميَّتها الجذّابة. توقفتْ عن الحديث، وكلّما تكلمتُ أجابتني بانفعاليّة، أو اعتباطيًا. لابدَّ وأنَّ ذهنها كان مأخوذاً تمامًا بحياكة الحطة.

اقتربنا سريعًا من نهاية رحلتنا، وأعاقتْها خفة القطار السريع عن أخذ وقت كافٍ للتصرف. لاحظتُ أنَّ شيئًا ما ألَمَّ بها حتى وأنا لم أزل مطمئنًا لها. أكادُ أجزم الآن أنّني لو لم أمنحها الفرصة التي انتظرتْها قبل وصولنا إلى مرسيليا، وبسبب غبائي، لربّما طعنتني بسكين، وألقتني أسفل القضبان، لكن ما حدثَ، أنّي اعتقدتُ فقط أنَّ طول الرحلة أنهكَها، وأشرتُ إلى أنَّ الرحلة كانت شاقة للغاية، واستسمحتُها أن أقدّم لها بعضًا من كونياك أحملهُ معي. شكرتني، وقالت: (لا)، ثم لمعتْ عيناها فجأة، وهتفتْ ملهوفة: (نعم، أشكركَ، سيكون لطفًا بالغًا منك).

كانت قارورتي في حقيبة اليد المستقرة في حضني، وبضغطة من إبهامي فتحتُ قفل الحقيبة. كنتُ أفتحها دومًا، بما أنّي أضعُ تذاكري ودليل خط سكّة الحديد في الحقيبة، ولا تزعجني كثرة إغلاقها، كما أنَّ حقيقة حزمها حول صدري كافية لحمايتها، إلا أنّني الآن أتخيّل كَمّ الارتياح، وأيضًا، كَمّ العذاب الذي شعرتْ به تلك المرأة عندما

رأتني أفتحُ الحقيبة دون مفتاح.

حين مرَّ القطار عبر الجبال، سرتْ في جسدي رعشة برد، ارتديتُ معطفًا رياضيًا خفيفًا، لكن بعدما أُضيئت المصابيح، باتَ جوّ المقصورة حارًا وخانقًا، ولم أعد مرتاحًا في المعطف؛ لذا، وقفتُ، وبعدما خلعتُ حزام الحقيبة من حول رأسي، وضعتُ الحقيبة على مقعد مجاور لي، ونزعتُ المعطف. لا ألوم نفسي على إهمالي، فقد كانت الحقيبة على بعد سنتيمترات من يدي، ولم يكن شيء ليحدث لولا توقّف القطار في محطة آرل؛ فمَع خلعي للحقيبة، ودخولنا المحطة في الوقت نفسه، أُتيحت الفرصة التي انتظرتْها الأميرة زيشي لسرقتي.

لا حاجة لوصف مهارتها الكافية في سرقة الحقيبة. دخلَ القطار إلى المحطة بكل سرعته، وكبح فرامله فجأة. ألقيتُ معطفي على الرفّ، وبالكاد وصلتْ يدي إلى الحقيبة. فتحتْ الأميرة باب المقصورة في اللحظة التي استعدَّيتُ فيها لحزم الحقيبة حول كتفي، وأشارت إلى الناس على الرصيف، وصاحت: (ناتالي! ناتالي! أنا هنا. تعالِي من هنا). أفزعني صياحُها، وصرخت فيَّ: (خادمتي! إنَّها تبحث عنّي. مرَّت بجانب النافذة ولم ترَني. اذهبْ، أرجوك، وأحضرْها). استمرَّت في الإشارة إلى الباب، ودعوتي للخروج بيدها الأخرى. كان هناك شيء في نبرة تلك المرأة يجعل الرجل يقفز من مكانه؛ فعندما

تملي عليكَ أوامرها، لا تملك فرصة للتفكير في أيّ شيء آخر؛ لذا خرجتُ مهرولًا من أجل مهمَّة إنسانية، ثم عدتُ مسرعًا لسؤالها كيف تبدو خادمتها. أجابت، وهي تفتح باب المقصورة وتغلقهُ مرتبكة: (سوداء. ملابسها سوداء، وعلى رأسها طاقية).

توقَّفَ القطار لثلاث دقائق في آرل. أعتقدُ أنّي اندفعتُ نحو عشرين سيدة خلال ذلك الوقت، أسألُ كل واحدة: (هل أنتِ ناتالي؟). ربما كان السبب الوحيد في أنّني لم أتلقَّ ضربة من مظلّة، أو أُهدَّد بطلب الشرطة، هو ظنّهنَّ بأنّي مجنون.

عدتُ جريًا إلى المقصورة، وكانت الأميرة جالسة في مكانها نفسهِ الذي تركتُها فيه، لكنْ كانت عيناها تضحكان من فرط السعادة. وضعتْ كفَّها على ذراعي بمودَّة، وقالت بامتنان جلي: (أنتَ لطيف معي للغاية. أعتذرُ منكَ عمَّا سببتهُ لك من متاعب). أكَّدتُ لها أنَّ كل النساء على الرصيف يرتدينَ الأسود، ضحكت، وقالت: (صحيح. أنا آسفة جدًا)، وباتت تضحكُ حتى كاد نفسُها ينقطّع، وظننتُها ستقع مغشيًا عليها.

أعتقدُ الآن أنَّ الجزء الأخير من تلك الرحلة لا بدَّ وأنَّه كان أصعب نصف ساعة في حياتها؛ هيَ مطمئنة لوجود علبة السجائر في حوذتها، لكنَّها تعرف أنَّها- نفسها- في خطر. تدركُ أنّني ما إن

أفتحَ حقيبتي، ولو في الدقيقة الأخيرة، وأتفقّد العلبة، فسأعرف حتمًا أنَّها مَن سرقها؛ فقد وضعتُ الألماس في الحقيبة لحظة دخولها المقصورة، ولم يشغلها سوانا، نحن الاثنان، منذ ذلك الحين. تعرفُ أنّهُ بمجرد وصولنا مارسيليا إمّا ستكون أغنى حالاً ممّا غادرت عليه باريس بعشرين ألف جنيه، أو ستُودع في السجن. ربما قيّمت الوضع هكذا. موقف لا تُحسد عليه، أشبه بالسير إلى الجحيم.

انخرطتْ فجأة في الحديث، كأعظم محاور؛ تُطري، تضحك على كل ما أقول، وتطرحُ عليَّ أسئلةً تطلقها كمدفع رشاش. شعرتُ بشيء غريب يحدث، وببراءة تساءلتُ أنّهُ ربما كان ذلك من تأثير الكونياك القوي عليها، وكذلك لم تكن لديَّ فرصة للتفكير في أيِّ شيء سوى ما تقول. كانت توقفُ ثرثرتها كلّما أشحتُ عنها، وتميلُ نحوي كقطة تحاصر فأرًا في جُحره. ذُهلت! كيف استعذبت رفقتها بداية رحلتي؟ وفكرتُ أنّي سأكون أفضل حالًا لو حُبستُ مع مجنون. لا أحبُّ تخيُّل ردة فعلها لو كنتُ أقدمتُ على فتح الحقيبة، لكن لم أفتحها؛ لاطمئناني لحزم الحقيبة حولي ثانيةً، ووصلت حياً إلى مرسيليا.

ما إن نزلنا في المحطة، حتى صافحتْني بابتسامة كابتسامة القط تشيشاير(10). قالت: (لا يسعني التعبير عن مدى امتناني لك). هل تتخيّلون كمّ الوقاحة! عرضتُ عليها استدعاء عربة لتقلّها، لكنّها رفضت

بحجة انتظار ناتالي، وادّعتْ أنّها تأمل لقائي ثانية في الفندق. وعليه، انطلقتُ وحدي، متسائلًا عن هويتها، وما لو لم تكن ناتالي حارستَها.

اضطررتُ لانتظار قطاري إلى نيس، ساعات طويلة، وبينما راودتْني رغبة في التجول قليلًا بالمدينة، فكَّرتُ أنّه من الأفضل لو وضعتُ الألماس في خزانة الفندق. بمجرد أنْ دخلتُ غرفتي، أغلقتُ الباب، وضعتُ حقيبة اليد على المنضدة، فتحتُها، تحسستُ بيدي الأشياء البادية منها في الأعلى، لكن لم ألمس علبة السجائر. غرزتُ يدي في عمقها، قلّبتُ بين الأشياء، لكن لم أصل إليها.

اجتاحَني شعور بالبرودة أسفل ظهري، ووخزة كطعنة سكين في تجويف بطني، ثمَّ ارتفعت درجة حرارتي حتى كدتُ أنصهر، وانبثقَ العرق من كل جسدي. بللتُ شفتيَّ بلساني، وقلتُ لنفسي: (لا تكنْ حمارًا. استجمعْ قوّتك، استجمع قوّتك. أخرجْ الأشياء من الحقيبة، واحداً، واحداً)، وبالتالي تمالكتُ أعصابي، وبدأتُ ألتقط الأشياء بحرص شديد، واحداً تلو الآخر. لم أتحمّل ذلك ولو لثانية، فاندفعتُ نحو السرير، ورميتُ عليه كل شيء، لكنَّ الألماس لم يكن من بين الأشياء.

جررتُ أغراضي نحوي، فتحتُها، وأعدتُ ترتيبها، ونظّمتها، لكن بلا فائدة، فقد اختفت علبة السجائر. ألقيتُ كل ما في حقيبة

ملابسي على الأرض، على الرغم من معرفتي بأنّه لا طائل من تفتيشها؛ فقد وضعتُها في حقيبة اليد. جلستُ، وحاولتُ التفكير بهدوء. تذكرتُ أنّي وضعتُها في حقيبة اليد بباريس، لحظة دخول تلك المرأة إلى المقصورة، وكنتُ معها وحدي منذ ذلك الوقت؛ إذن، هي مَن سرقني، لكن كيف؟ لم تفارق الحقيبة كتفي. تذكرتُ بعد ذلك أنّها فارقتني، وأنّي خلعتُها وأنا أتحرَّر من معطفي، وبعدها أمضيتُ بضعَ دقائق أبحثُ عن ناتالي. تذكرتُ أنَّ تلك المرأة هي مَن أرسلتني لمطاردة وهمية من نسج خيالها، وأنَّها حاولت التخلص منّي عند كل محطة بحجج واهية.

جأرْتُ كثور هائج، ووثبتُ على السلم مسرعًا، ستّ درجات في كل وثبة. سألتُ في مكتب الاستقبال عمَّا إذا وصلت الفندق امرأة مميّزة، ذات حسب، روسية ربما، وكما توقعتُ، لم تأتِ. قفزتُ في أول سيارة، بحثتُ عنها في فندقين آخرين، وأدركتُ أنّه من الحماقة محاولة الإمساك بها دون مساعدة خارجية، فانطلقتُ نحو مكتب رئيس الشرطة، وطلبتُ من الأمين إخطاره في الحال. سألني الأمين عن شكواي، وطلبَ المغفّل منّي أن أهدأ، ليسجل ملاحظاته. أخبرتهُ أنَّ هذا ليس الوقت المناسب لأخذ ملاحظات، لكنّ للّحاق بها. أغضبهُ اعتراضي، وطلبتُ منه مقابلة رئيس الشرطة شخصيًا. قال إنَّ رئيس الشرطة مشغول للغاية، ولا يسمح وقتهُ برؤيتي، فأظهرتُ

له وسام الكلب السلوقي الفضي (11). لم أضطرّ أبدًا لاستخدامه، على مدى أحدَ عشر عامًا، إلا مرة واحدة. أعلنتُ عن كوني أحد مبعوثي الملكة بلهجة واثقة ومهذبة، وإذا لم أقابل رئيس الشرطة في الحال سيخسر رتبتهُ. حينها، قفزَ الأمين عن ظهر حصانه المرتفع، وركضَ معي إلى رئيسه.

كان الرجل شابًا وأنيقًا، عقيدًا في الجيش، حادّ الذكاء. شرحتُ له أنّني تعرضتُ للسرقة على متن أحد قطارات سكك حديد فرنسا، وانتُشلَ مني عُقد من الألماس يعود لملكة إنجلترا، أرسلتهُ جلالتها إلى زوجة الإمبراطور الروسي، ولفتُّ انتباههُ إلى أنّه بنجاحه في القبض على اللص؛ سيحصل على ما يكفي لتأمين بقية حياته، وستُكرّمه القوى الثلاث العظمى.

لم يكن من ذلك النوع الذي يعيدُ التفكير فيما يخصّ مصلحته. تخيَّلَ الأوسمة الروسية والفرنسية وهي تُغرس في جميع أنحاء سترته، ضربَ جرساً، وضغط على أزرار، وأصدر أوامرهُ كقائد زورق صغير في الضباب. أرسلَ مواصفاتها لتُعلّق على كل بوابات المدينة، وأمرَ كل سائقي الأجرة وحمّالي السكة الحديدية بالبحث عنها في كل القطارات المغادرة من مارسيليا. أمرَ بتفتيش كل حقائب الركاب المغادرين من المدينة، وأرسلَ برقيات لمالكي كل الفنادق والنُزل،

ليبعثوا لهُ كشفًا كاملًا بنزلائهم خلال ساعة.

أصدرَ مائة أمر على الأقل في غضون دقائق، وأنا واقف أمامه، وبعثَ قوات من الشرطة، وشرطة الدراجات، ومخبرين بملابس مدنيّة يصحبهم جيش من كلاب جيرمان. بعدما انطلقوا في مهمتهم، طمأنني على اعتبار أنَّ المرأة قُبض عليها تقريبًا. في الواقع، ورسميًا، قُبض عليها؛ لأنّها لا تملك فرصة للهروب من مرسيليا، إلا إذا اختبأت في قلعة ديف (12). طلبَ منّي العودة إلى فندقي، وتهدئة أعصابي، على أن يهاتفني خلال ساعة بخبر القبض عليها. شكرتهُ، وأثنيتُ على مجهوداته، وغادرتُ المكتب.

لم أشاركهُ شعورهُ الواثق نفسهُ؛ فكنتُ أرى أنّها امرأة بالغة الذكاء، أكثر من أيّ منّا، ومنّا مجتمعين. من الطبيعي أن يكون مبتهجًا بما فعلَ؛ فهو لم يُضع الألماس، وسيربح كل شيء إذا وجدهُ، أمّا أنا، فحتى لو أعادهُ لي، سأبقى كما كنتُ قبل أن أفقده، ولو لم يجدهُ، سأغدو مُحطّمًا مُفلسًا.

صفعني القدر صفعةً قاسيةً على وجهي؛ فكنتُ دائم الفخر بإنجازاتي، لم أضِعْ مظروفًا قط خلال الأحدَ عشرَ عامًا، أو أفوّت أول قطار، والآن، فقد فشلتُ في أهم مأموريَّة كُلِّفتُ بها على الإطلاق، و ليسَ الألماس بشيء يمكن التعتيم على ضياعه. سينتشر

خبره، سيكون مشهدًا دراماتيكيًا، وستلاحقني السمعة السيئة في كل مكان. تخيَّلتُ نفسي وأنا أضحوكة القارَّة، وربما أُنفى منها، أو يُشتبه في سرقتي العقد.

كنت مارّاً أمام مقهى مضاء، متعب، وبائس؛ ففكرتُ في الجلوس لالتقاط أنفاسي، ثم فكرتُ في أنّي، وفي حالتي المزاجيّة وقتئذ، لا يمكنني البقاء أكثر من عشرين دقيقة لطلب مشروب؛ لذا قررتُ مغادرته، لكن شعرتُ بأعصابي وقد باتت تنفلتُ منّي كأرنب مفزوع، وشعرتُ بأنَّها ستنهار بين لحظة وأخرى، أو سأُجنّ.

أخرجتُ علبة سجائري، لكنَّ السجائر لم تكن لتكفيني؛ فأعدتُها، وأخرجتُ علبة سجائر أحفظ فيها أقوى وأشدّ السجائر قتامة. فتحتُها، وقلبتُ فيها بأصابعي، لكن بدلاً من السيجار لمستْ أصابعي غلاف جلدي رفيع. توقفَ قلبي تمامًا، وهمدتْ دقاتهُ. لم أجرؤ على النظر، نبشتُ الجلد بأناملي، وشعرتُ بطبقات من الورق الرقيق، ثم طبقة من القطن، وبعدها خدشتْ أظافري أسطح ألماس زوجة الإمبراطور.

ترنَّحتُ كما لو لُكم وجهي، ورجعتُ إلى أحد الكراسي على الرصيف. مزَّقت الغلاف، وفردتُ الألماس على طاولة المقهى. لم أصدق أنّي أراهُ بالفعل. شبكتُ العقد بين أصابعي، جرشتُ حباته

بباطن يدي، ألقيتُ به في الهواء، ولقفته. أعتقدُ أنّي تقريبًا قبّلته.
رفعتْ امرأة في المقهى رأسها قليلًا لترى بوضوح، وضحكتْ حتى البكاء. اجتمعَ الناس من حولي حتى اصطفَّ النُدُل لحراستي. ظنَّ صاحب المقهى أنَّ هناك مشاجرة، واتصلَ بالشرطة. كنتُ سعيدًا ولم أهتمّ. ضحكتُ كثيرًا، وأعطيتهُ خمسة جنيهات ليقدّم مشروبًا مجانيًا للجميع. استقليتُ عربة أجرة، وعدتُ مسرعًا إلى صديقي رئيس الشرطة. تأسّفتُ له بشدة، كان سعيدًا، وشكرَ الفرصة التي جمعتْنا، لكن من المؤكد أنَّ أملهُ خابَ عندما علمَ أنّي قدّمتُ بلاغًا زائفًا.
الآن وقد وجدتُ الألماس، لم يعد عليه البحث عن المرأة. في الواقع، كنتُ قلقًا، وتمنيتُ لو غادَرتُ المدينة؛ لأنّها لو عرفت الحقيقة ستظهر ثانية، ومن المحتمل أن تواجهني بسيل من التوبيخ والسخرية.

أعرفُ الآن ما الذي حدث. عندما دخلتْ عليَّ المرأة مقصورتي، وفي عجلة منّي لإخفاء الألماس، دفعتُ بالسجائر في الحقيبة، وبقيَ الألماس في جيب المعطف. الآن، وقد اطمأننتُ لوجود الألماس ثانية، يبدو ذلك كخطأ طبيعي، لكن خشيتُ ألا تعتبرهُ وزارة خارجيتنا كذلك، خشيتُ ألا يتفهم أحد بساطة خدعتي السريّة في إخفاء الأشياء، وبالتالي، عندما وصلتُ قسم الشرطة، ووجدتُ المرأة لم تزلْ حرة، خفَّ قلقي.

أصابَ الغمّ رئيس الشرطة عندما علمَ بخطئي، وأنْ لا شيء عليه ليفعلهُ، لكن السعادة التي غمرتني جعلتني أكرهُ رؤية التعاسة في عين أيّ شخص؛ لذا أوحيتُ لهُ بأنَّ محاولة سرقة عقد زوجة الإمبراطور ربما تكون حلقة أولى من متوالية محاولات لعصابة معدومة الضمير، وربما لم أزلْ معرَّضًا للخطر.

غمزتُ لرئيس الشرطة، فابتسمَ لي، وذهبنا معًا إلى نيس في سيارة صالون، مع حراسة مكوَّنة من اثني عشر رجلًا من الدرك، واثني عشر آخرين بملابس مدنيّة، وشربتُ أنا وصديقي الشمبانيا طوال الطريق. دخلنا الفندق سويًا، حيثُ يقضي السفير الروسي إجازتهُ، محاطيْن بحرَّاسنا من الدرك، وسلّمنا العقد في أغرب مرسم. تأثَّر السفير العجوز بشدة، وعندما أشرنا إلى أنني كنت هدفًا لهجوم من قبل عصابة، أكَّد أنَّ جلالة الإمبراطور لا ينسى أهل الفضل.

كتبتُ خطاب توصية إلى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية عن الخدمات الجليلة لرئيس الشرطة، ومنحوهُ من الأوسمة الفرنسية والروسية ما يكفي لإرضاء أيّ ضابط فرنسي. وهكذا، برغم من أنَّه لن يقبض على المرأة، فقد نالَ مكافأته.

توقفَ مبعوث الملكة، تفقَّد الوجوه التي حدّقت فيه مرتبكة، ثم أضاف: «ولكن أسوأ ما في الأمر، أنَّ القصة لا بدَّ وأن انتشرت؛

لأنَّه بينما لا تدينُ الأميرة لي سوى بعلبة سجائر، وبخمس سيجارات فاخرة، أرسلَ لي الإمبراطور علبة سجائر ذهبية، بعد أسابيع قليلة من التتويج ، وقد رُصّعَ عليها حرف اسمه الأول بالألماس. ولا أعلمُ حتى الآن ما إذا كانت تلك مصادفة، أم أنَّ الإمبراطور قصدَ إخباري بمعرفتهِ سرّ احتفاظي بعقد زوجتهِ الماسي في علبة سجائر مكسوّة بجلد خنزير. أيّهما تعتقدونَ يا أصدقاء؟»

---

(9) وسام القديس ميخائيل والقديس جرجس: وسام أنشأهُ جورج الرابع ملك بريطانيا في 1818، لتكريم الرجال والنساء ممّن يؤدّون خدمات غير عسكرية خارج بريطانيا.

(10) القط شيشاير: أحد أبطال قصة «أليس في بلاد العجائب»، للويس كارول، ومعروف بابتسامته الشريرة الماكرة.

(11) وسام الكلب السلوقي: وسام لمبعوثي ملك بريطانيا لتمييزهم، معلق به مجسم للكلب السلوقي، وجاءت فكرته عندما وظفَ الملك ريتشارد الثالث أربعة رسل عام 1485، ولتمييزهم كسر أربعة مجسمات للكلاب السلوقية من طبق إفطاره الفضي، وبقيَ رمزًا لمبعوثي الملك.

(12) قلعة ديف: تبعد 3 كيلومترات عن ميناء مارسيليا القديم، ولا يمكن الوصول إليها إلا بحرًا. كانت سجنًا لعدد من السياسيين البارزين، وخلّدها ألكسندر

توماس في روايته «الكونت ديمونت كريستو».

الفصل الثالث

وقفَ السير أندرو والاستنكار مرسوم على كل قسمات وجهه، قالَ: »أظنُّ قصَّتك ستنتشر بعد حادثة القتل، ولا أتصوَّر شيئًا يمكن فعلهُ لوقف ذلك على الإطلاق؛ لذا لا ضرورة لبقائي معكم«، دفعَ كرسيَّه إلى الوراء، انحنى بصعوبة، وقال:»أتمنّى لكم ليلة سعيدة«.

ارتفعت جلبة احتجاج في الغرفة، دسَّ خادم قطعة ورق في يد الرجل ذي اللؤلؤةَ السوداء للمرة الثانية، تحت جنح الاعتراضات على ردّ البارون. قرأ الكلمات المكتوبة عليها، ومزَّقها إلى فتات صغير جداً.

رفعَ أصغر الأعضاء يدهُ بثقة، بعدما باتَ مهتمًا ومستمعًا صامتًا لقصة مبعوث الملكة، هتفَ: »سير أندرو، يتحتّم عليَّ استئذانكَ في الجلوس؛ لإنصاف اللورد آرثر تشيتني. لقد اتّهموه في جلسة استماعنا بتهم خطيرة للغاية، وأُصرُّ على أن تبقى حتى تستمع لي وأنا أُبرِئ ذمَّته«. صاحَ البارون: »أنت«!.أجابَ أصغر الأعضاء بسرعة: »نعم«. برَّر السير أندرو موقفهُ: »لديَّ موعد هامّ«، فقاطعهُ الشاب قائلًا: »لكنّي أعتقد أنَّ هذا الرجل«، أومأ برأسه نحو مبعوث الملكة، ثم تابعَ حديثه:»وضّحَ كثيراً من الحقائق التي كنتُ أجهلها، رغم أنَّه - على ما يبدو لك- لم يقل معلومة واحدة مفيدة؛ لذا دعني أباشرُ

القصة من النقطة التي أوردَها الملازم سيرز، وأضيفُ لكم عليها تلك التفاصيل التي يجهلها الملازم سيرز نفسه.

أعرفُ أنَّكم تتساءلون عن مؤهّلاتي حتى أضيفَ أنا لكم تتمّة تلك القصة، لكنَّ الصدفة تشرح نفسها بسهولة. أنا عضو حديث الانضمام لمكتب تشادلي وتشادلي للمحاماة، وعملنا كمحامين لعائلة تشيتني في المائتيّ عام الأخيرة. لا تخفى علينا أيَّة معلومة تتعلق باللورد إيدام وولديه، مهما بلغتْ من التفاهة، وبطبيعة الحال كنَّا ملمّين بكل تفاصيل الفاجعة البشعة التي وقعتْ ليلة أمس«.

ارتبكَ البارون، لكن حاولَ السيطرة على نفسه لئلّا يبدو على ملامحه شيء. جلسَ مرة أخرى على كرسيّه، واستسمحهُ: »هل ستطيلُ عليَّ يا سيدي؟«، قالَ المحامي الشاب: »سأبذلُ كل جهدي لأكونَ موجِزًا«، أضاف بنبرة وعيد أسبغَها على كلماته، حتى صارت كإنذار لهم بما سيحدث: »أعدكم بالتشويق والإثارة«، قال السير أندرو: »لا تحتاج لأنْ تعدنا بذلك؛ فأنا أجدُها مثيرة للاهتمام بما يكفي«، ثم ألقى نظرة آسفة على ساعته، حوَّل عينيه عنها بسرعة، وقال للنادل: »اطلبْ من سائق العربة انتظاري، وسألحقُ به خلال ساعة«.

بدأ صغير تشادلي حديثهُ: »خلال الأيام الثلاثة الماضية، وكما قرأتُم على الأرجح في الصحف اليومية، كانت الحالة الصحية للماركيز إيدام

لا تُنبئ بخير، ولم يكن أطباؤه يغادرون بيتهُ مطلقًا. ظلَّ وضعهُ يسوء كل ساعة عمَّا قبلها، لكن على الرغم من صحته التي بدتْ وكأنَّها فارقتهُ إلى الأبد، ما زالَ عقلهُ نشطاً ومتيقظاً.

في ساعة متأخرة من مساء أمس، استقبلنا في المكتب نبأ رغبتهِ في حضور والدي في الحال إلى بيت عائلة تشيتني، ومعهُ بعض الأوراق الهامّة. وإذا لم تكن تلك الأوراق تخصّ جوهر حديثنا، فأنا أذكرُها فقط لأشرحَ سبب وجودي بجوار سرير اللورد إيدام ليلة أمس.

رافقتُ والدي إلى بيت عائلة تشيتني، لكنْ كان اللورد إيدام نائمًا في ذلك الوقت الذي وصلنا فيه، ورفضَ أطباؤه طلبنا المتكرر بإيقاظه. ألحَّ والدي عليهم بأنَّه يجب عليه أخذ توجيهات اللورد إيدام بخصوص بعض المستندات، لكن أصرَّ الأطباء على عدم إزعاجه، واجتمعنا كلنا في المكتبة لانتظاره حتى يستيقظ. كانت الساعة حوالي الواحدة صباحًا، وبينما كنَّا جالسين هناك، جاءَ المحقق لايل وضباط من سكوتلاند يارد للقبض على اللورد آرثر، بتهمة قتلِ أخيه. لكم أن تتخيَّلوا كمّ الحزن والفزع الذي أصابنا.

كنتُ على علم بأنَّ اللورد تشيتني مازالَ حيًا من صحف الظهيرة، مثل أي شخص آخر، وأنه عادَ إلى إنجلترا، لكن بمجرد وصولنا إلى بيت تشيتني قيلَ لي أنَّ اللورد آرثر ذهبَ إلى فندق باث، ليبحثَ عن

أخيه، ويبلغهُ بضرورة الحضور في الحال إذا رغبَ في رؤية والده قبل وفاته. لم يعد آثر إلى البيت على الرغم من أنَّ الساعة قد تجاوزت الواحدة. لم يكن أيٌّ منَّا يعرف أين تعيش السيدة زيشي؛ لذلكَ لم يكن في مقدورنا الذهاب واستعادة جثة اللورد تشيتني.

قضينا أتعسَ ليلة، نهرعُ نحو النافذة كلما مرَّت سيارة أجرة من الميدان، على أمل أن يكون اللورد آرثر عائدًا، ويفسّر لنا وجود أدلة تشير إلى ارتكابه جريمة القتل. كنتُ صديقًا لآرثر، كنتُ معه في مدرسة هارو وجامعةَ أكسفورد، ورفضتُ تصديق تورُّطه في مثل تلك الجريمة ولو للحظة، لكنْ كمحامٍ لم يسعْني إلا رؤية الأدلة الظرفيَّة وهي تجتمع ضدَّه بقوة.

في الصباح الباكر، استيقظَ اللورد إيدام في حالة صحية أفضل كثيرًا، حتى رفضَ إجراء التعديلات التي كان ينوي إتمامها في الأوراق، وسخرَ منّا معلنًا أنَّه لم يكن أقرب إلى الموت ممَّا كنَّا نحن. في ظروف أخرى كان لنبأ التحسّن السعيد أن يريحَ قلوبنا إلى حد كبير، لكن لم يستطع أحدُنا التفكير في أيِّ شيء سوى إخفاء خبر وفاة ابنه الأكبر، والاتهامات التي تلاحقُ آرثر.

قرَّر والدي - باعتباري أنّني أحد المستشارين القانونيين للأسرة- أن أمكثَ في البيت طوال المدة التي يبقى فيها المحقق لايل فيه، لكن

لم يكن هناك سوى القليل لأيٍّ منّا للقيام به. لم يعد آرثر، ولم يأتِنا جديد حتى ساعة متأخرة من هذا الصباح. عندما استقبلَ لايل نبأ القبض على الخادم الروسي، قادَ سيارته على الفور إلى سكوتلاند يارد لاستجوابه، وعندما عادَ إلينا بعد ساعة، أطلعَنا على رفض الخادم الإدلاء بأيَّة معلومات عمَّا حدث في الليلة الماضية، أو عن نفسه، أو عن الأميرة زيشي، حتى إنَّهُ رفضَ إرشادهم إلى عنوان بيتها. قال لايل: (إنَّه مفزوع ومذعور بشدة. طمأنتهُ بأنهُ بعيد عن دائرة الاشتباه في تلك الجَريمة، لكنه لم ينطق بشيء).

لم يكن هناك أيَّة تطورات أخرى حتى الساعة الثانية من ظهر اليوم، عندما جاءَنا خبر العثور على آرثر، وأنَّه يرقد في قسم الطوارئ بمستشفى القديس جرجس. ذهبنا أنا ولايل إلى هناك معاً، ووجدناه مسنّداً بدعامات على سرير، ورأسهُ ملفوف في ضمادة. باتَ الليلة الماضية في المستشفى، نقلهُ سائق عربة تجرُّها الأحصنة إلى هناك بعدما دهسهُ في الضباب. ركلهُ الحصان في رأسه، ووصلَ إلى المستشفى فاقداً وعيه. لم يكن معهُ أيّ شيء يدلُّ على هويته، وظلَّ كذلك حتى استعادَ وعيه بعد ظهر اليوم، وتمكنتْ إدارة المستشفى من إخطار عائلته.

لم ينتظر لايل حتى أخبرهُ بقرار القبض عليه، والتهمة الموجَّهة إليه.

ومع أنَّ المحقق قد حذّرهُ من قول أيّ شيء يمكن أن يُستخدم ضدَّه، فقد طلبتُ منه، وبصفتي محاميه، أن يتكلم بحرّية، ويخبرنا بكل ما يعرفهُ عن ملابسات الليلة الماضية. باتَ جلياًّ لأيٍّ شخص أنَّ وقع خبر مقتل أخيهِ أشدُّ على نفسه مرات من خبر الاشتباه به في قتلهِ. صرخَ آرثر في وجوهنا: (هذا.. هذا هراء. منتهى الوحشية والبشاعة)، قالَ: (افترقنا بعدما أصبحنا صديقيْن أكثر ممَّا كنّا لسنوات... سأخبركم بكل ما حدث، ليس تبرئة لنفسي، لكن لأساعدكم في اكتشاف الحقيقة)، حكى لنا قصته على النحو التالي:

بعد ظهر أمس، وبسبب بقائهِ الدائم بجوار والده، لم يطالعْ آرثر الصحف المسائية، ولم يفعل ذلك إلا بعد العشاء، عندما أحضرَ له كبير الخدم إحدى الصحف، وأخبرهُ بما وردَ فيها، وأنَّ أخاهُ ما زالَ حياً ويقيم في فندق باث. ذهبَ إلى هناك في الحال، لكن قالوا له إنَّ أخاه قد غادرَ حوالي الساعة الثامنة، ولم يتركْ أيَّة معلومات عن وجهته.

اعتقدَ آرثر أنَّ تشيتني ما زالَ غاضباً ممَّا فعلهُ والده، بما أنَّه لم يأتِ فور وصوله ليراه، جنحَ عقله بطبيعة الحال إلى سبب شجارهما، وقرَّر الذهاب إلى بيت الأميرة زيشي ليبحث عنه. دلّهُ فاعلو الخير على عنوان بيتها، لم يزرهُ أبدًا، لكنَّه مرَّ من أمامه كثيرًا قبل ذلك،

وعرفَ موقعهُ بالضبط. وفقًا لذلك، قادَ متجهًا إلى بيتها، بالقدر الذي سمحَ به الضباب للعربة، ثم قطعَ بقية الطريق مشيًا، حتى وصلَ إلى البيت حوالي الساعة التاسعة. دقَّ الجرس، واستقبلهُ الخادم الروسي. أخذَ الرجل منه بطاقتهُ ودخلَ غرفة الضيوف، وسرعان ما خرجَ له أخوه ورحَّب به. تبعتهُ الأميرة زيشي، التي استقبلت آرثر هي الأخرى بودّ وحرارة. قالتْ: (أيُّها الأخوان، بالتأكيد لديكما الكثير للحديث عنه. أنا ذاهبة إلى غرفة الطعام. أخبراني وقتما تنتهيان).

بمجرد أن تركتْهما، أخبرَ آرثر أخاهُ أنَّ الأطباء لا يتوقعون لوالدهما العيش حتى الليل، ولذلكَ عليه أن يحضر فورًا، قال آرثر لأخيه: (ليست تلك اللحظة التي نتذكر فيها خلافاتنا. لقد عدتَ ثانية من الموت في الوقت المناسب فقط لمصالحتهِ قبل أن يموت). قالَ آرثر إنّه ما إن قال لهُ ذلك، حتى دخلَ تشيتني في نوبة حزن عنيفة، وقال: (أنتَ تسيء فهمي تمامًا. لم أكنْ على علم بمرض والدنا، وإلا ذهبتُ إليه بمجرد وصولي. السبب الوحيد الذي منعني من فعل ذلكَ هو اعتقادي بأنّه ما زالَ غاضبًا مني. سآتي معكَ الآن، حالما أودّع الأميرة. إنّه وداعنا الأخير. بعد هذه الليلة، يجب عليَّ ألا أراها ثانية).

صاحَ فيه آرثر: (هل تعني حقًّا ما تقول؟)، أجابَ تشيتني: (نعم،

عندما عدتُ إلى لندن لم تكن لديَّ أيَّة نيَّة لإعادة ما مضى، وقد اقترفتُ ذنبًا بمجيئي إلى هنا). أخبرَ آرثر بعد ذلك بقرار انفصالهِ عن الأميرة، حتى من قبل أن يذهبَ إلى وسط أفريقيا، وأنَّه -علاوة على ذلك- بينما مرَّ بالقاهرة في طريقهِ إلى الجنوب، عرفَ حقائق مؤكدة تخصُّ الفترة التي قضتْها هناك خلال الموسم السابق، ما جعلَ تمنّي رؤيتها ثانية وللأبد أمرًا مستحيلًا. كان انفصالهما نهائيًا ومفروغًا منه.

قال تشيتني: (خدعتْني بدم بارد. لا أقوى على وصف بشاعة فعلتِها تلك. كانت واقعة في غرام دبلوماسي روسي على مدار عامينْ قضيتُهما وأنا أسعى لنيل موافقة والدي على زواجنا. كان يزورها سرًا طوالَ ذلك الوقت، هنا، في لندن، وكانت رحلتها إلى القاهرة مجرَّد حجة لتلتقي به هناك). عارضهُ آرثر: (وفي النهاية، ها أنتَ ذا الآن تقضي الليلة هنا معها، بعد ساعات قليلة من عودتك). ردَّ تشيتني: (يمكنُني تبرير ذلك بسهولة. عندما أنهيتُ عشائي الليلة في الفندق، تسلمتُ رسالة منها من هذا العنوان. كتبتْ فيها أنَّها قد علمتْ للتو بوصولي، وأنها تتوسل إليَّ أن آتي إليها في الحال. قالت إنّها تعاني من مشكلة خطيرة، تواجهُ الموت من مرض لا أملَ في الشفاء منه، بلا أصدقاء ولا مال. رجتْني، بحقّ أيامنا الخوالي، أنْ أزورها لإعانتها. ماتتْ كل مشاعري السابقة تجاه زيشي نهائيًا، وأنا في الغابات طوال العامين الماضيين، لكن لن يجرؤ إنسان على ردِّ طلبها بعد استغاثتها في تلك

الرسالة؛ لذلكَ جئتُ إلى هنا، ووجدتها كما رأيتَها بعينيك قبل دقائق، جميلة وبهيَّة كما هي دومًا، صحتها جيدة جدًا، وبإلقاء نظرة سريعة على مظهر البيت، لا تبدو في حاجة لمال.

سألتُها عمَّا رمتْ إليه من مكاتبتي في هذه الليلة، والكذب بشأن احتضارها في غرفة فوق سطح أحد المنازل. ضحكتْ، وقالت إنّها فعلتْ ذلك خوفًا من رفضي أيَّة محاولة منها لمقابلتي إذا لم أشعر بحاجتها للمساعدة. هذا كل ما حدثَ بيننا حتى وصلتَ أنت. والآن، سأودعها، ومن الأفضل أن تعودَ أنتَ إلى البيت. لا تقلقْ، يمكنكَ الوثوق بي، سأتبعكَ في الحال، لم يعد لدلالها التأثير نفسه على قلبي، لكنّي مؤمن بأنها، وعلى الرغم من تصرفاتها الشاذة، ماتزالُ مغرمة بي، وعندما تعرفُ أنَّه هذا هو وداعنا الأخير، ربما يكون موقفًا مؤثرًا، ووجودكَ هنا لن يكون منصفاً لها؛ لذا، اذهبْ إلى البيت في الحال، وقلْ لوالدي إنّي سأتبعكَ بعد عشر دقائق).

قال لنا آرثر: (هكذا كنّا قبل أن نفترق. لم أتركهُ يومًا ونحنُ على مثل هذا الودّ والوفاق، كنتُ سعيدًا لرؤيته حيّاً مرة ثانية، كنتُ سعيدًا باعتقادي أنّه عادَ إلينا في الوقت المناسب ليحلَّ خلافه مع والدي، وكنتُ سعيدًا بأنَّه قطعَ علاقتهُ مع تلك المرأة أخيرًا. لم أعجبْ بهِ طوال حياتي مثلما كنتُ ليلتها). التفتَ إلى المحقق لايل، والذي ظلَّ جالسًا

عند طرف السرير يسجّل ملاحظات بكل ما أخبرَنا به آرثر. صرخ آرثر: (لماذا انجرفتُ معه بعيدًا عن العقل والحكمة، واخترتُ في تلك اللحظة بالذات، دون غيرها، أن أرسلَ أخي بيديَّ مرة ثانية إلى القبر!)، لكنْ لم يجبهُ المحقق، وبقيَ صامتًا للحظات.

لا أعرفُ يا سادة إذا سمعَ أحدكم من قبل عن المحقق لايل، ولكن لو لم يكن لديكم علم، يمكنني أن أؤكّد لكم أنّه شخصية تسترعي الانتباه. يرسلُ له مكتبنا دومًا طلبات بالمعاونة في القضايا. لم يخذلنا قط، ويكنُّ له والدي أكبر قدر ممكن من الاحترام؛ فلطالما تمتَّع بميزة عن أيّ ضابط شرطة تقليدي - في الواقع- لديهِ مخيلة واسعة لا تُضاهى. يتخيَّل لايل نفسه في موقف المجرم، يتخيَّل كيف سيتصرف تحت الظروف نفسها، يتصور ذلك لغرض محدد، وهو - بشكل عام- فهمَ الشخصية التي يطاردها للوصول إليها. كثيرًا ما أخبرتُ لايل أنّه لو لم يكن محققًا، لربما سجَّل نجاحًا عظيمًا كشاعر أو ككاتب مسرحي.

عندما توجَّه آرثر بحديثه إليه، تردَّد لايل للحظة، وبعد ذلك، قرأ عليه تفاصيل التهمة الموجهة ضدَّه بالضبط، قال: (منذ أن ذاعَ خبر وفاة شقيقكَ في إفريقيا وأنتَ تستخدم نفوذكَ لجمع المال على أمل ردّه لاحقًا. أحالَ وصول اللورد تشيتني في الليلة الماضية وعودكَ بتسديد

ديونكَ إلى هباء. وجدتَ نفسكَ فجأة مديونًا بآلاف الجنيهات، أكثر بكثير ممَّا يمكنكَ حتى ردّه.

لا أحد يعرفُ أنكَ وأخاك قد تقابلتُما في بيت السيدة زيشي، لكنّك تعرف أنَّ النجاة لن تُكتب لوالدكَ من مرضه، وأنّها ليلته الأخيرة، وأنّه إذا ماتَ أخوك هو الآخر، ربما تنجو بنفسكَ من إفلاس محقق، ووقتئذٍ ستصبح ماركيز عائلة إيدام).

صاح آرثرَ: (لا أصدّق ما أسمعه! تلك هي الطريقة التي حللتَ بها القضية، أليس كذلك؟ وإذا كانَ صحيحًا، بالنسبة لي، كي أصبحَ كبير عائلة إيدام، هل كان لزامًا عليَّ قتل المرأة أيضًا؟) أجابهُ لايل: (لأنّها ستشي بك، ولأنّها كانت شاهدة على جريمة القتل، وستبلغ عنك)، قال آرثر: (ثم لماذا لم أقتل الخادم بالإضافة إليهما؟)، أجابهُ لايل: (لأنّه كان نائمًا، ولم يرَ شيئًا ممَّا حدث)، سألهُ آرثر: (وأنتَ تصدق ذلك؟) قال لايل بنبرة صارمة: (لا محلَّ لسؤالي أنا عمَّا أؤمن به؛ فتلكَ مسألة هيئة المحلفين التي ستبتُّ في قضيتك)، صرخَ آرثر: (أنتَ رجل وقح! ما تفعلهُ وحشيّ! فظيعٌ!)

قامَ من سريره قبلَ أن نتمكَّن من السيطرة على غضبه، وأخذ يقذفنا بملابسه، وعندما هرعت الممرضات في محاولة للإمساك به، اشتبكَ معهنَّ بالأيدي، عنَّفهن وزجرَ: (هل تعتقد أنّ بإمكانكَ التحفظ

عليَّ هنا؟ متى سيحكمون عليَّ بالشنق؟ سآتي معكَ إلى ذلك البيت!).

استمرَّ آرثر في الصراخ على لايل: (عندما تجد هاتين الجثتين سأكون إلى جوارك، ذلكَ حقّ لي، فهو أخي. لقد تمَّ قتلهُ، ويمكنني إخباركَ بهوية مَن قتله. تلك المرأة هي من قتلتهُ. دمَّرت حياته في البداية، ثم قامت بقتلهِ. ما برحت تتآمر طوال السنوات الخمس الماضية لتصبح زوجة له، وفي ليلة أمس، عندما أخبرَها بأمر اكتشافه حقيقة علاقتها مع الدبلوماسي الروسي، وأنّها لن تراه ثانيةً للأبد، أعماها العشق وغرزت السكين في قلبه، ثم خشيتْ من مواجهة حبل المشنقة، فقتلتْ نفسها. هي من قتلتهُ، أؤكّد لك، وأنا أعدكَ إذا بحثتَ عن السكين الذي استخدمتهُ، ستجدهُ إلى جوار جثتها، ربما مايزالُ في يدها. فماذا ستقول لو اكتشفتَ ذلك؟). أشاحَ لايل بوجههِ عنهُ، حدَّق في الأرض طويلًا، وأجاب: (ربما أقولُ أنكَ أنتَ من وضعتَ السكين هناك).

أطلقَ آرثر صرخة غضب مدويّة، انقضَّ على لايل، ثم ترنَّح وسقط على ذراعه. صارت الدماء تسيل من الجرح أسفل الضمادة، حتى فقدَ وعيه. حملهُ لايل وأعاده إلى السرير ثانية. تركناهُ في حراسة الشرطة وعناية الأطباء، واتجهنا في الحال إلى العنوان الذي وصفهُ لنا. انطلقنا من شارع المستشفى، سيرًا على أقدامنا، ولم تمرّ أكثر من ثلاث دقائق حتى وجدنا البيت. يقع في تريفور تراس، ذاك الصف

القصير من المنازل المتراصة خلف ثكنات نايتسبريدج، لينتهي في هيل ستريت.

قال لي لايل بينما كنّا نغادر المستشفى: (لستَ في حاجة لأن تلومني على معاملته بالطريقة التي اتّبعتُ. لم أخلّ بقواعد العدل في عملي هذا، وإذا دفعتُ ذلك الفتى للاعتراف على نفسه بإثارتي لغضبه، سأكونُ محقًا في محاولتي القيام بذلك. على أيَّة حال، أنا أؤكد لكَ، لن يسعد أحد مقدار سعادتي إذا استطعتُ إثبات صحة روايتِهِ، لكننا لا نعرفُ الحقيقة. يعتمد كل شيء على ما سنراهُ بأنفسنا في غضون الدقائق القليلة المقبلة).

عندما وصلنا إلى البيت، كسرَ لايل مقبض إحدى نوافذ الطابق الأرضي المخبَّأة خلف الأشجار في الحديقة. فتحَها، تسللنا عبرَها، فوجدنا أنفسنا في غرفة الاستقبال، والتي كانت أول غرفة على يمين الصالة.

ما زالَ زيت الكاز يحترق كما هو في مصباحٍ زجاجي ملون، صانعًا ظلالًا حمراء تشبهُ خيوط الحرير، وعندما تدفَّق ضوء النهار من بعدنا إلى الغرفة، بدا لنا تصميم الصالة مقيتًا وخليعًا، كبهو مسرح في نادٍ ليلي، أو كمدخل صالة قمار مُستعِرة لا يبرحُها الزبائن. خيّمَ صمت خانق على البيت، ورغم علمنا سبب ذلك الصمت صرْنا نتحدث

همسًا.

شعرتُ وكأنّما يقبض أحدهم بيده على حلقي، في الوقت الذي لفَّ فيه لايل مقبض باب غرفة الضيوف، لكنْ تبعته، بالقرب من كتفه، وفي ضوء مكتوم يقطر من مصابيح كثيرة ملونة، رأيتُ جثة تشيتني عند أقدام الكنبة، تمامًا كما وصفَ الملازم سيرز. وجدنا جثة الأميرة زيشي أيضًا في غرفة الضيوف، ذراعاها مفرودان، وقد تجمَّد الدم المنبثق من قلبها في خط رفيع يمرُّ عبر كتفها العاري. على الرغم من تفتيشنا الأرضية، كلانا على أيدينا و رُكبنا، لم يتمكن أحد من العثور على السلاح الذي قُتلتْ به.

قلتُ له: (هذا دليل على براءة آرثر. كنتُ لأدفع ألف جنيه لو وجدْنا السكين في يدها، مثلما قال لنا)، أجابَ لايل: (ولأننا لم نجده هناك، فهذا في رأيي أقوى دليل على أنه يقول الحقيقة، وأنّه غادر البيت قبل وقوع جريمة القتل. هو ليس بغبي، ولو طعنَ أخاه وهذه المرأة، سيفكّر في أنّه بوضع السكين على مقربة منها سيبدو المشهد كما لو أنّها قتلت تشيتني وانتحرت بعد ذلك. علاوة على ذلك، فقد أصرَّ اللورد آرثر على أنَّ إيجادنا السكين بيدها سيكون دليلًا لصالحه، ولم يكن ليصرَّ على ذلك لو علمَ بأننا لن نجده، لو علمَ أنهُ هو نفسه من خبَّأ السلاح بعيدًا.

هذهِ ليست واقعة انتحار. لا ينهض المنتحر من موته ليخبّئ السلاح الذي قتلَ به نفسه، ثم يستلقي على الأرض ثانية. لا، بل إنّها جريمة قتل مزدوجة، وعلينا البحث خارج البيت عن القاتل).

استمرَّ لايل في حديثه بينما كنّا نفتش في كل زاوية، نتدارس أدق التفاصيل في كل غرفة. أمسيتُ خائفًا بشدة من أن يتوصل إلى بعض الاستنتاجات التي قد تضرّ بموقف آرثر، دون أن يقول لي؛ لذا لم أبرحْ جانبه لحظة. عقدتُ العزم على رؤية كل شيء تقع عليه عيناه، وبقدر الإمكانَ، منعهُ من تفسيرهِ بطريقة خاطئة.

في النهاية، أنجزَ استقصاءه، وجلسنا سويًا في غرفة الضيوف. أخرجَ مفكّرته وأخذَ يقرأ بصوت عالٍ كل ما سردهُ عليه السيد سيرز من وقائع الحادثة، وما سمعناهُ للتو من آرثر. قارنّا القصتين كلمة كلمة، وقيّمنا شهادة تلو شهادة، لكنّني لم أستطع تحديد - من بين كل ما قرأ- أيّ القصتين قرّرَ تصديقها.

راحَ يردد: (نحنُ نحاول بناء صرح من الأدلة، في حين أنَّ نصف تلك الأدلة مفقود. يجب علينا أخذ الفرضيّتين بعين الاعتبار)، واصلَ متعجبًا: (إحداهما يكون فيها اللورد آرثر مسؤولًا عن قتل اثنين، والأخرى تكون فيها المرأة الميتة مسؤولة عن قتل تشيتني، ثم انتحرت، ولكن، حتى يغدو الخادم الروسي مستعدًا للإدلاء بشهادته،

سأمتنعُ عن اتهام أيٍّ منهما)، سألتهُ: (وما الذي ستثبتهُ من خلال شهادته! لقد باتَ سكرانًا ونائمًا، لم يرَ شيئًا). تحيَّر لايل، ثم، وكأنّه قرَّرَ مصارحتي لجأة بما يدور بباله، أخذَ يتحدث بارتياح، أجاب: (أنا لا أعرف إن كان في حالة سكر أو نائمًا فعلًا كما قيل. يصفهُ الملازم سيرز كساذج مسكين، أمَّا أنا فلستُ مقتنعًا سوى بأنّه ممثل ذكي. ما وظيفته في هذا البيت؟ ما الخدمة التي يؤديها هنا؟ أفترضُ أنها لم تكن حراسة هذه المرأة، ولكن مراقبتها. دعْنا نتخيل لو لم يكن هنا لخدمة المرأة، لكن من أجل خدمة سيد آخر، ونرى إلامَ سيقودنا ذلك.

لهذا البيت سيّد متخفٍّ، وقائد فضّل التغيب عن المشهد، وهو يعيش في سان بطرسبرغ. ذلك الدبلوماسي الروسي الذي لا نعرفه، أشعلَ الخلاف بين تشيتني وزيشي، وبسببهِ تخلّى تشيتني عنها، هو نفسه الرجل الذي اشترى هذا البيت للسيدة زيشي، وهو من أرسلَ السجاد والستائر من سان بطرسبرغ لتأثيثهِ من أجلها، وفق ذوقه الخاص، وأعتقدُ أنَّه مَن وظّف الخادم الروسي هنا أيضًا، لخدمة الأميرة ظاهريًا، لكنّه، في حقيقة الأمر، من أجل التجسس عليها.

لا نعرف هوية هذا الرجل في سكوتلاند يارد، والشرطة الروسية أقرَّت بأنّها تجهل أيَّ شيء يتعلق به تمامًا مثلنا. عندما سافرَ اللورد تشيتني إلى إفريقيا، انتقلت السيدة زيشي للعيش في سان بطرسبرغ،

لكن هناك، امتلأت حفلات الاستقبال وموائد العشاء المقامة على شرفها بشخصيات من طبقة النبلاء، ومن الجيش، ودبلوماسيين؛ ولهذا، وفي زحمة من الزوار، لم تستطع الشرطة معرفة أيهم هو الشخص الذي تكنّ له أكبر قدر من الامتنان).

أشارَ لايل إلى اللوحات الفرنسية المعاصرة، والسجاد الحريري الثقيل المعلق على الحوائط، قال: (ذلكَ المجهول هو رجل يتمتع بحس فني وثروة كبيرة، ليس ذاك النوع من الرجال الذي قد يرسل بجاهل غبي لحراسة المرأة التي يحبّ؛ لذلك لستُ مقتنعًا بتصديق ما قالهُ السيد سيرز عن أنّه مجرد خادم ساذج، وبدلًا من ذلك أميلُ لاحتمالية كونهِ سفاحاً حاد الذكاء. في ظنّي، هو الحامي لشرف سيّده هنا، أو، دعنا نقول، حامي أملاك سيّده، سواء كانت تلك الأملاك طبقًا فضيًا أو المرأة التي يحبّها سيده.

بعدما غادرَ اللورد آرثر مساء أمس، باتَ الخادم وحدهُ في البيت مع اللورد تشيتني والسيدة زيشي. يمكنهُ سماع اللورد تشيتني وهو يودّع محبوبته أينما جلسَ في الصالة، وفي سبيل ذلك أؤكد لكَ -إذا كانت فكرتي عنه صحيحة- أنّه يفهم الإنجليزية تمامًا، مثلي ومثلك. دعنا نتصور أنّه سمعها تتوسل إلى تشيتني كيلا يتخلى عنها، مذكرةً إياه برغبتهِ القديمة في الزواج بها، ودعنا نفترضُ أنه سمعَ تشيتني يتّهمها بخيانته،

وأخبرها بما عرفهُ في القاهرة بشأن ذلك العشيق الروسي، سيّد ذلك الخادم، ثم سمعَ المرأة تعلن صراحة أنهُ عشيقها الوحيد، وأنَّ هذا الروسي المجهول لا يمثل لها شيئًا، في ماضيها ولا حاضرها، وأنّها لم تحب رجلًا سواه، وأنها لم تعش يومًا دون حبّه طالما تعرف أنّه على قيد الحياة.

تخيَّل لو صدَّقها تشيتني، تخيَّل لو عاد افتتانه السابق بها، وأنهُ غفر لها، وأخذها بين ذراعيه في لحظة ضعف. تلك اللحظة التي يخشاها السيد الروسي، اللحظةَ التي فرضَ حراستهُ على الأميرة ليحولَ دون وقوعها. كيف لنا أن نعرف! خدمَ الحارس سيده، حسبما يفرضُ عليه واجبه، عندما حانت تلك اللحظة، وقتلَ العشيقين كليهما. ما رأيك؟ ألا يفسّر ذلك مقتلهما؟)

كنتُ على استعداد تام لسماع أية نظرية يشير فيها إلى أيّ شخص باعتباره المجرم، دون آرثر، لكن كان تفسير لايل الأروع على الإطلاق. أخبرتهُ أنّه يمتلك بصيرة نافذة بلا أدنى شك، لكن لا يمكنهُ شنق رجل بناءً على تصوراته عنه. أجابني لايل: (لا، لكن يمكنني إخافتهُ بسرد ما أتصور أنّه فعل. حينئذ، عندما أعيد استجواب الخادم الروسي سأوضح له تمامًا اعتقادي بأنّه القاتل. أظنّ أنَّ هذا سيفكّ اللجام الذي عقدَ لسانه. سينطق الرجل للدفاع عن

نفسه على الأقل. الآن، تعالَ، يجب علينا العودة إلى سكوتلاند يارد حالًا، والتحقيق معه. لم يعد ثمة شيء آخر لنفعله هنا).

نهضَ، تبعتهُ إلى الصالة، وخلال دقيقة كنّا في طريقنا إلى سكوتلاند يارد، لكن بمجرد أن فتحَ الباب المؤدي إلى الشارع، لمحَ ساعي البريد يلهث عند بوابة الحديقة، يمدّ يده، ويتحسس المزلاج. توقفَ لايل، وقد علت وجهه نظرة غضب وغمّ، صرخ: (كم أنا غبي!)، انحنى بسرعة، وأشارَ إلى شقّ ضيق، يقطع عرضيًا لوحة نحاسية في الباب الأمامي، قال: (للبيت صندوق بريد خاص، ولم أفكر في إلقاء نظرة عليه. لو خرجنا من النافذة مثلما دخلنا، ما كنتُ لأراه مطلقًا. وجبَ عليَّ التفكير في التحفظ على الخطابات التي وصلت هذا الصباح منذ اللحظة الأولى لدخولي البيت. لقد كنتُ مستهترًا بفداحة).

تراجعَ خطوات نحو الصالة، حاولَ رفع غطاء صندوق البريد المعلق على الجانب الداخلي للباب، إلا أنّه كان مغلقًا بإحكام. في اللحظة نفسها، اقتربَ منّا ساعي البريد حاملًا بيده خطاباً. سحبهُ لايل من يده دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، وبدأ يقلّبه. كان موجهًا للأميرة زيشي، وعلى ظهر الظرف كُتب اسم (خياط ويست إند). قال لايل: (لا يلزمني هذا)، أخرجَ بطاقته، أظهرها لساعي البريد،

وقال: (أنا المحقق لايل، من سكوتلاند يارد. أصحاب هذا البيت قيد الاعتقال، وكلّ ما يخصه الآن تحت تصرُّفي. هل ألقيتَ بأيّة خطابات أخرى هنا هذا الصباح؟). بدا الرجل مرعوبًا، لكنّه أجابَ دون تردد بأنّه الآن في نوبته الثالثة، وأنّه وزّع البريد مرة في السابعة صباح ذلك اليوم، وأخرى في الحادية عشرة. سألهُ لايل: (كم عدد الخطابات التي تركتَها هنا؟)، أجابَ الرجل: (جميعها؟ ستة تقريبًا)، سألهُ: (وهل أدخلتَها في صندوق البريد عبر الباب؟)، قال ساعي البريد: (نعم، أضعُها دومًا في الصندوق، ثم أدقّ الجرس، وأغادر. يجمعها الخدم من الداخل)، سألهُ لايل: (هل لاحظتَ من قبل إذا كان أيٌّ من تلك الخطابات التي تركتها هنا يحمل طابع بريد روسيًّا؟)، أجاب الرجل: (أجل، صحيح يا سيدي، الكثير منها)، قال لايل: (مِن الشخص نفسه؟ هل كنتَ لتقول ذلك؟)، أجابَ الرجل: (الخط هو نفسه في كل مرة تقريبًا. تصل الخطابات بانتظام، مرة واحدة كل أسبوع. واحد من تلك الخطابات التي سلّمتها هذا الصباح كان يحمل طابع بريداً روسيًّا)، ردَّ لايل ملهوفًا: (هذا يفي بالغرض. شكرًا لك. شكرًا جزيلًا لك).

جرى لايل عائدًا نحو الصالة، سحبَ مطواتهُ من جيبه، وشرعَ في فتح قفل صندوق البريد، قال بانفعال شديد: (لقد كنتُ مهملًا للغاية. مرتان من قبل، كنتُ فيهما قادرًا على تتبع حركات أناس

هاربين من العدالة بوضع مراقبة على صندوقهم البريدي. تلك الخطابات التي تصل بانتظام، كل أسبوع، من روسيا، بخط اليد نفسه، بالتأكيد مُرسلها هو شخص واحد. على الأقل، نحنُ الآن على وشك معرفة اسم سيد هذا البيت. ستكون رسالتهُ واحدة ممَّا تركَ الرجل هنا هذا الصباح بلا شك، وقد نضعُ أيدينا على أهم اكتشاف).

ظلَّ يتحدث بينما يحاول فتح القفل بسكّينه، لكنّه لم يطق صبرًا على الوصول إلى الخطابات، و ضغط بكل قوّته على النصل حتى انكسرَ في يده. اتخذتُ خطوة إلى الوراء، وطرقتُ على القفل بنعل حذائي، ففرقعَ وانفتح. طار غطاء الصندوق، تكالبْنا على صندوق البريد، وأسرعَ كلٌّ منّا بدسّ يده داخلهُ. للحظة، وقفَ كلٌّ منّا مشدوهًا لا يقوى على الحركة؛ كان الصندوق فارغًا.

لا أعرف كم لبثنا واقفيْن يحدق كل منّا في الآخر ببلاهة. استفاق لايل أولًا، قبضَ عليَّ بكلتا ذراعيه، ثم أشارَ بكل حماس إلى داخل الصندوق الفارغ. هتفَ: (هل تدرك ما يعنيه هذا؟ هذا يعني أنّ شخصًا ما جاء إلى هنا قبلنا. دخلَ شخص إلى هذا البيت ليس قبل ثلاث ساعات من قدومنا، منذ الساعة الحادية عشرة هذا الصباح). صرختُ: (لقد أتى الخادم الروسي إلى هنا)، صاحَ فيَّ: (الخادم

الروسي الآن رهن الاعتقال في سكوتلاند يارد، لا يمكنهُ المجيء وأخذ الخطابات. اللورد آرثر في فراش المرض في المستشفى. هذا دليل براءته. هناك شخص آخر، شخص لم نشتبهْ به، وهذا الشخص الآخر هو القاتل. جاء إلى هنا، مثلما فعلنا، لأخذ تلك الخطابات؛ لأنّه يعرف تمامًا أنّها دليل إدانته، أو لمسح أثر تركهُ هنا بعد ارتكابه الجريمة، شيء يثبتُ التهمة؛ ربما سلاح، أو بعض المقتنيات الخاصة؛ علبة سجائر، منديل وقّعَ عليه باسمه، أو زوج من القفازات. لا يهمّ ما هو ذاك الشيء، لكنّه دليل دامغ على جرمهِ حتى دفعهُ للمجيء إلى هنا والاستماتة من أجل تلك الفرصة).

سألتهُ هامسًا: (كيف نتأكد من أنّه لا يختبئ هنا الآن؟)، أجابَ لايل: (لا، أقسمُ لك أنه ليس هنا. ربما لم أتمهّل في تفتيش بعض الأشياء، لكني تفقدتُ هذا البيت بعناية. ومع ذلك، علينا إعادة البحث مرة أخرى، من القبو إلى السطح. صارَ معنا الآن مفتاح جديد لحلّ اللغز، وعلينا التغاضي عن البقية، وحلّ هذا فقط).

أعادَ البحث ثانية في غرفة الضيوف بينما ظلَّ يتكلم، يقلّب بين صفحات الكتب المرصوصة على المناضد، وكرّاسات الموسيقى فوق البيانو. قال دون أن يلتفت إليَّ: (كائناً من يكون ذاك الرجل، فنحنُ على علم الآن أنَّ لديه نسخة من مفتاح الباب الأمامي، ومفتاح

صندوق البريد. يبيّنُ لنا ذلك أنّه إمّا يسكن في البيت، أو أنّه يأتي إلى هنا متى يشاء. قال الروسي إنّه الخادم الوحيد في هذا البيت. لا شكَّ في ذلك، نخلال بحثنا لم نعثر على دليل واحد قد يشير إلى وجود أيّ خادم آخر يبيتُ هنا. ليس هناك سوى شخص واحد هو من يملك نسخة من مفتاح البيت، ومفتاح صندوق البريد، ويعيش في سان بطرسبرغ. كان على بُعد ألفي ميل وقت وقوع جريمة القتل). قطعَ لايل حديثهُ فجأة بصرخة عميقة، نظرَ إليَّ بعينين لامعتين، وصاح: (لكن هل كان؟ هل كان؟ كيف لنا أن نتأكد من أنّه لم يكن في لندن ليلة أمس، في هذا البيت تحديدًا عندما استقبلت زيشي تشيتني؟)

ظلَّ واقفًا يحدّق بي، دون أن يراني، يغمغمُ، ويتجادلُ مع نفسه، وبينما هممتُ بالتجرؤ على مقاطعتهِ صرخَ: (لا تتحدث معي. يمكنني تصوّر المشهد الآن، صارَ واضحًا بكل تفاصيله. لم يكن الخادم ليقتلهما، لكنّه سيده، الدبلوماسي الروسي نفسه، وهو نفسه الذي عادَ من أجل الخطابات، عادَ ليأخذها لأنّه يعلم أنّها ستُدينه. يتحتم علينا إيجادُها. يجب أن نحصل على تلك الخطابات. إذا وجدْنا خطابًا واحدًا بطابع بريد روسي؛ سنعرفُ القاتل حتمًا).

كان يتحدث كرجل مخبول، وبينما لم ينفكّ عن التحدث، هرولَ

جيئة وذهابًا في الغرفة، يمدُّ يداً أمامه، ويقبضُ الأخرى خلف ظهره، حتى بدا كممثلٍ يلعب دورَ قارئ الأفكار في عرض تفاعلي، بعدما نزلَ عن المسرح باحثاً عن شيء خفي وسط جمهور الصف الأول.

سحبَ الخطابات القديمة من على المكتب، وفحصها سريعًا بعين مُقامرٍ يبحث عن ورقته الرابحة. نزلَ على ركبتيه قبالة المدفأة، سحبَ الفحم الجامد بيدهِ المجردة، ثم، وبصرخة قلقة مكتومة، ككلب صيد اشتمَّ خطرًا، ركَضَ عائدًا إلى سلة المهملات، ألقى بكلّ ما فيها من أوراق، بعثرَها على الأرض، أطلقَ صيحة المنتصر، فصلَ بعض الأوراق الممزقة عن الأخرى، ورفعَها نحوي.

صاح: (انظرْ. أترى؟ وجدتُ خمسة خطابات ممزقة. لم يتوقف الروسي لحظة ليقرأها، ولذلك، كما ترى، تركَها ومازالُ أظرفها مغلقة. كنتُ مخطئًا، لم يعد من أجل الخطابات، لم يعرف حتى قيمتها. لابدَّ وأنّه عادَ لسبب آخر، وحينما قرَّر المغادرة، وقعتْ عيناه على صندوق البريد، أخرجَ منه الخطابات، جمعها معًا بين قبضتيه، ومزقها طولاً وعرضًا. بعد ذلك، ولأنَّ نيران المدفأة قد انطفأتْ، ألقى بها في سلة المهملات. انظر، هذا طابع بريد روسي، هنا في الزاوية العلويَّة من هذه القطعة، هذا أحد الخطابات التي أرسلها،

وماتزالُ أطراف الظرف ملصقة).

أمعنّا النظر في الطابع الروسي، ووجدنا عليه ختم الإلغاء لطمس معالمه، مُرسل من سان بطرسبرغ، منذ أربعة أيام مضت. يحمل ظهر الظرف الختم البريدي لفرع المكتب الواقع في شمالي سلون ستريت، ومؤرَّخ للوصول ذلك الصباح. كان الظرف من الورق الأزرق، الخاص بالجهات الرسمية، ولم نواجهْ صعوبة في العثور على الجزأين الآخرين منهُ. جمعنا القطع الممزقة من الخطاب من بين القصاصات، وضممناها معًا جنبًا إلى جنب. لم يكن هناك سوى نصّ مكتوب من سطرين، وكان هذا هو المضمون:

(سأغادر بطرسبرغ في قطار الليلة، وسأراك في تريفور تراس بعد العشاء، مساء يوم الاثنين).

هتفَ لايل: (كان ذلك ليلة أمس. وصلَ بعد اثنتي عشرة ساعة من إرسالِه الخطاب، لكنَّ الخطاب وصلَ في الوقت المناسب. وصلَ في الوقت المناسب ليلفَّ حبل المشنقة حول رقبتِه). ضربَ البارون بيده على الطاولة محتجًا، قال: »الاسم! مَن الذي وقّع الخطاب؟ ما اسم الرجل؟«.

قامَ المحامي الصغير على ساقيه، مالَ بجذعه إلى الأمام، مدَّ ذراعه عبر المنضدة، صاح: »لم يكن هناك اسم. كان الخطاب موقعًا بالحرفين

الأولين للاسم فقط، لكن نُقشَ عنوان الرجل على الجزء الأعلى من الورقة. كان العنوان المدوَّن (*مقرّ السفارة الأميركية، سان بطرسبرغ، مكتب الملحق البحري*)، *ثمَّ الأحرف الأولى للاسم*«. صرخَ، ارتفعَ صوتُه بين ابتهاج وصياح مرير: »*كانت الأحرف الأولى لاسم هذا السيد النبيل، الذي يجلس أمامي، الذي أخبرَنا بأنّه أول من وجد جثتي القتيلينْ، الملحق البحري في روسيا، الملازم سيرز*«.

خيَّم سكونٌ موتّر وموحش بعد كلمات المحامي. بدا صمتهم كتلك الذبذبات التي تتبع انفلات وتر جيتار من مسمارهِ بعد نقرة عنيفة. شحَبَ وجه السيد أندرو، أخذ يحدق، وارتسمت على قسمات وجههِ أشدّ تعابير الاشمئزاز. باتتْ عيناه معلّقتانِ على الملحق البحري، وقد أخذَ الرعب يدبُّ في قلبه، أمَّا الملازم الأميركي فأطلقَ تنهيدة ملؤها الارتياح، غاصَ داخل كرسيّه برضاً بالغ، صفَّق بكلتا يديه برفق، وتمتمَ: »إعدام! أقسمُ لكَ بأنّي لم أخمِّن ما كنتَ ترمي إليه بقصتكَ. أنتَ تمزح معي، سيشنقونني إن لم تكن. من المؤكد أنكَ تستغفلني«.

استندَ الرجلُ ذو اللؤلؤة السوداء على طرف المنضدة، مالَ قليلًا بجذعه، وفي إيماءة عصبية همسَ: »هدوء! كونوا حذرين!«. لكن في تلك اللحظة، وللمرة الثالثة، اندفعَ خادم نحو الغرفة، دسَّ قطعة ورق في يديه، فقرأها متلهفًا. كانَ النص المكتوب في الورقة:

(انطفأت الأضواء عن كل غرف مجلس العموم البريطاني. رُفعت الجلسة).

أطلقَ الرجل ذو اللؤلؤة السوداء صرخة جبَّارة، وألقى الورقة من يده على المنضدة. صاح: »مرحى! رُفعت الجلسة. فعلناها وربحنا«، رفعَ كأسه، ربَّتَ بقوة على كتف الملحق البحري، أومأ برأسِهِ فرحًا نحوه، ثم نحوَ المحامي، ومبعوث الملكة. أعلنَ: »أيُّها السادة الأفاضل، في صحّتكم! جزيل شكري وتهانيَّ القلبية«. شربَ كأسهُ حتى آخر قطرة، زفرَ تنهيدة طويلة وشتْ بما استشعرهُ من سعادة وانتصار.

اعترضَ مبعوث الملكة، فظلَّ يهزّ إصبعه بعنف في اتجاه المحامي الصغير، وهو يقول: »لكن بالحقّ أقول لك: إنَّ قصتكَ لا تعرف إلى الواقع سبيلًا. لم تلعبْ بنزاهة، كما... كما أنكَ بتَّ تتحدث بسرعة كبيرة حتى نسيتَ حول ماذا كانَ يدور ذلك كله؟. أراهنكَ أنَّ ذلك الدليل لن تقتنعَ به أيَّة محكمة عادلة. لا يمكنكَ شنق قطة بدليل كذلك. دليل الإدانة في قصتكَ محضُ هراء، أمَّا قصتي فجمالها في واقعيّة مرجعيّتها«.

نسيَ رواة القصص جمهورهم وسط فرحتهم بما أبدعهُ خيالهم، حتى شعروا بالذنب تجاه السيد أندرو الذي أخذهُ العجب. نسجَ الغضب، والشك، والذهول خيوطهُ على ملامحه. صرخَ: »ما الذي يعنيهِ ذلك؟

أهذه دعابة؟ أم أنكم مجانين؟ إذا كنتم تعرفون أنّه القاتل، لماذا لم يتمّ إلقاء القبض عليه؟ هل تلك لعبة كنتم تلعبونها؟ فسّروا لي موقفكم في الحال. ما معنى ذلك؟».

ألقى الأميركي نظرة خاطفة على الآخرين، نهَض، انحنى بلباقة، وقال: «سير أندرو، أنا لستُ بقاتل، صدّقني، لا داعي للقلق. في واقع الأمر، وفي هذه اللحظة، أنا خائفٌ منك أكثر بكثير ممَّا قد تكون أنت. أتوسلُ إليك، من فضلك، كن رؤوفًا بنا. أؤكّد لك، لم يكن هدفنا التقليل من شأنكَ. اختلقنا قصصًا متوافقة مع الواقع بصورة جزئية، ذلك كل ما في الأمر. تظاهرنا بأنّنا أناسٌ غيرنا لمدة ساعتين فقط، لتسليتكَ بأكثر الحكايات البوليسية تشويقًا، ولتقارنها بآخر رواية قرأتَها: (السرقة الكبرى)».

حكَّ البارون جبهته بعصبية، زجرَ: «هل تقصد بما تقولهُ أنَّ شيئًا من ذلك لم يحدث؟ أنَّ اللورد تشيتني لم يمت، وأنَّ محاميه لم يجد خطابات بخط يدكَ مُرسلة من مكتبكَ في بطرسبرغ، وأنّه عندما اتّهمكَ بالقتل أمامنا الآن كان يمزح؟».

قال الأميركي: «في الحقيقة، أنا في غاية الأسف! ولكن اطمئنّ يا سيدي، هو لم يعثر على أيّة خطابات بخط يدي من سان بطرسبرغ، لأنّه لم يسبق لي أن سافرتُ إلى بطرسبرغ من قبل بكل بساطة. لم

أخرج من بلدتي أبدًا قبل هذا الأسبوع. أنا كاتب للقصص القصيرة، وهذهِ الليلة، عندما أخبرني هذا السيد النبيل بأنكَ مغرم بالقصص البوليسية، اعتقدتُ أنّه سيكون ظريفًا لو حكيتُ لكَ واحدة من قصصي، واحدة بدأتُ في تأليف خطوطها العريضة بعد ظهر اليوم«.

قاطعهُ البارون: »لكنَّ اللورد تشيتني شخصية حقيقية، سافرَ إلى إفريقيا قبل عامين، واشتُبهَ في موتهِ هناك، وأخوه، اللورد آرثر، كان الوريث الوحيد. وبالأمس، عاد تشيتني. قرأتُ ذلك في الصحف«.

صدّقَ الأميركي على كلامه بهدوء وهو يقول: »وأنا كذلك، أدهشتني الأحداث، وأوحتْ لي بأفضل حبكة أدبية لكتابة قصة، أقصدُ عودته غير المتوقعة من الموت، وخيبة الأمل المحتملة لأخيه الصغير؛ لذا قررتُ أنّه يتوجَّب على الأخ الأصغر قتل الأكبر.

ابتكرتُ شخصية الأميرة زيشي من وحي خيالي. لم أضطرّ إلى اختلاق عنصر الضباب؛ فمنذ ليلة أمس وأنا أعرفُ كل ما يستوجب معرفتهُ عن الضباب في لندن؛ لقد ضللتُ طريقي لمدة ثلاث ساعات بسببه«.

تجهَّم البارون، وصرفَ وجهه نحو مبعوث الملكة، احتجَّ به: »لكن هذا الرجل المحترم ليس بكاتب للقصص القصيرة، إنّه موظف في

وزارة الخارجية. لقد رأيتهُ مرارًا في وايتهول ستريت (13)، ووفقًا لما قالهُ، فالأميرة زيشي ليست شخصية خيالية. قال إنّها شخصية تنالُ حظًا من الشهرة، وأنّها حاولت سرقته«.

نظرَ الموظف في وزارة الخارجية إلى عضو مجلس العموم مشفقًا عليه، نفخَ دخان سيجارته مضطربًا، ثم نطقَ متلطّفًا: »هذا صحيح سير أندرو، فأنا مبعوث الملكة، وذات مرة حاولتْ امرأة روسية سرقة أحد مبعوثي الملكة في عربة قطار سكة حديد، الفرق الوحيد أنني لم أتعرضْ لذلك، بل حدثَ لأحد أصدقائي.

إنَّ الأميرة الروسية الوحيدة التي أعرفُها، تطلقُ على نفسها اسم زابريسكي. ربما صادفتَها سيادتكَ مرة؛ فهي تحبّ الغوص، ومن أجلهِ تقفزُ من قمة حوض السمك الملكي (14)«.

أطلقَ السيد أندرو شخرة مستنكرة في مواجهة المحامي الشاب، وقال: »أنا أيضًا أرى قصتكَ سخيفة ومفككة، ينقصُها الكثير بكل تأكيد، بما أنَّ اللورد تشيتني لم يمتْ. لكن لا تقل لي أنكَ - فوق ذلك- لستَ نجل تشادلي«.

ابتسمَ أصغر الأعضاء من شدة الإحراج، وقال: »أنا آسف، ولكنّي لا أنتمي إلى عائلة تشادلي. رغم ذلك، أؤكد لكَ معرفتي بتلك العائلة

جيدًا، وذلك لارتباطي معها بعلاقات جيدة للغاية«.

تعجَّب البارون، وقالَ له: »وجبَ أن تكون كذلك، بناءً على جرأتكَ، وإلا ما كنتَ لتخوض في حديث عن عائلة تشيتني. كان من الأفضل لكَ أن ترتبط بعلاقات جيدة معهم أيضًا«.

أسندَ الشاب رأسه على كرسيه، ألقى نظرة خاطفة على الخدم في أقصى ركن في الغرفة، وقال: »مرَّ زمن طويل لم آتِ فيه إلى النادي، حتى أشكّ في أن يتذكرني الخدم. ربما يألفُ جوزيف وجهي«، نادى: »جوزيف!«. في الحال، تقدَّم الخادم هرعًا نحوه. أشارَ الشاب إلى رأس أسد ضخمة، محنطة، ومعلقة فوق المدفأة. قال: »جوزيف، أطلبُ منك أن تقصَّ على هؤلاء السادة المحترمين قصة الرجل الذي اصطادَ هذا الأسد. من الذي أتى برأسه إلى النادي؟«.

لم يعتد جوزيف على ترؤّس حديث في وجود أعضاء من النادي، أخذَ يبدل من وضع ساقيه قلقًا، ثم أجابَ متلعثمًا: »لماذا؟ سعادتكَ... أتيتَ به سعادتك«.

ابتسمَ الشاب، وقال: »بالتأكيد أنا من جاء برأسه، ولكنّي أقصد، ما اسم الرجل الذي اصطاده؟ أخبرْ هذا السيد المحترم مَن أكون، لأنّه لن يصدقني«.

قال جوزيف: »من أنتَ يا سيدي؟ أنتَ نجل اللورد إيدام، اللورد تشيتني«.

قال اللورد تشيتني، وقد أطبقَ الصمت على فم الحضور: »عليكَ الاستسلام إلى تلكَ الحقيقة؛ لأنّني لم أقوَ على الاستمرار في كذبة موتي، بينما يُواجهُ أخي الصغير اتهامًا بقتلي. كان عليَّ أن أفعل شيئًا؛ لإنقاذ شرف العائلة. الآن، رغم أنَّ آرثر، أخي الأصغر، لا يطيقُ رؤية الدم ينزف من جرح بسيط، فإنني - بصفة شخصية- سأتبرَّأ منه إذا شُنقَ بتهمة قتل«.

قال الأميركي: »هذا واضح، حتى إنَّكَ لم تشعر بغضاضة تجاه احتمالية شنقي، لكنّي أعترفُ بتهمتي رغم سذاجة دليلكَ، وسأنزلُ أشد عقوبة بنفسي، وأتحمّل الجزاء الكامل على فعلتي بموجب القانون. وبما أنّكم مضطرون لقبول حكمي هذا؛ فقد حكمت المحكمة بأن يأتي لي جوزيف ببطاقة نبيذ، وأن أوقّع عليها بأغلى خمس زجاجات شمبانيا في النادي«.

اعترضَ الرجلُ ذو اللؤلؤة السوداء: »أوه، لا، لا، لن توقّعها أنت؛ فالسيد أندرو هو الأحقّ بدفع ثمنها في رأيي. لقد حانَ الوقت ليشاركنا تسليتنا«، اتّجهَ نحو الرجل العجوز وقال: »لأنكَ كنتَ ضحيّتي المغفلة لما يمكن تسميتهُ بمؤامرة وطنية؛ فقد كان لما سمعتهُ من قصص غرضٌ

آخر خفي، أكبر من مجرد تسلية. لقد استدعيتهم باسم الواجب، لمنعكَ من الذهاب إلى مجلس العموم.

يجبُ أن أشرح لك، أنّه، وعلى مدار هذه الليلة، عيّنتُ خادماً للانتظار في ميدان ترافلغار(15)، على أن يأتي لي بالخبر عند خروج النواب وإطفاء أنوار البرلمان، والآن، أطفئت الأنوار، ونجحت الخطة التي رسمناها«.

تنبَّهَ البارون فجأة، رمقَ الرجلَ ذا اللؤلؤة السوداء ببصره، ثم نظرَ بسرعة إلى ساعته. غابت الابتسامة عن شفتيْه، جمدتْ التَعابيرَ كلّها على وجهه. سألهُ بحسّ بارد: »وهل لي بمعرفة الهدف وراء خطّتك؟«.

حاجَّهُ الآخر: »هدف وجيه، يستحقّ ذاك العناء. كنّا نسعى لمنعكَ من التصويت لصالح إهدار ملايين من أموال الشعب على شراء مزيد من السفن الحربية. باختصار، لقد اتّحدنا سويًا للحيلولة دون تمرير قانون زيادة ميزانية أسطول البحرية الملكية«.

شابت الحمرة وجه السيد أندرو الممتقع، ارتعشَ جسده لكثرة ما كنَّ من انفعالات، قالَ مهتاجًا: »سيدي العزيز! عليكَ قضاء وقت أطول في البرلمان، ووقت أقل في ناديكَ. لقد أتمَّ المجلس قراءته الثالثة

لميزانية الأسطول في الثامنة مساء الليلة. ألقيتُ خطابًا تأييديًا، امتدَّ لثلاث ساعات.

باتَ السبب الوحيد لرغبتي في العودة ثانية في هذه الليلة، هو شرب نخب في شرفة المجلس، مع صديقي القديم، الأدميرال سيمونز، على النجاح الذي حققتهُ في المجلس قبل خمس ساعات، عندما صدّقَ المجلس بالأغلبية الساحقة على قانون زيادة الميزانية البحرية».

وقفَ البارون، انحنى للأعضاء، ثم قال: »سادتي، لا يسعُني سوى شكركم على تلك الليلة المشوِّقة«.

ألقى الأميركي ببطاقة النبيذ التي جاءَ له بها جوزيف ناحية الرجل ذي اللؤلؤة السوداء، وقال له: »أنتَ، وقّعْ عليها«.

النهاية

---

(13) وايت هول: من أهم شوارع وسط لندن، ومركز للحكومة البريطانية من وزارات ودوائر حكومية، ويقع البرلمان بالقرب منه.

(14) حوض السمك الملكي: أو «الأكواريوم»، كان مكانًا للترفيه في وستمنستر، بلندن، وضمَّ حديقة ومسرحاً. افتُتح عام 1876، واعتمدَ نظامًا مكلفًا لتزويد أحواض السمك الضخمة بالمياه، دون أن تضمّ سمكة واحدة، حتى هُدم في

عام 1903.

(15) ميدان ترافلغار: ميدان تاريخي بلندن، ويفصلهُ وايت هول ستريت عن ميدان البرلمان، ويعدّ ساحة للاعتصامات والاحتجاج.

